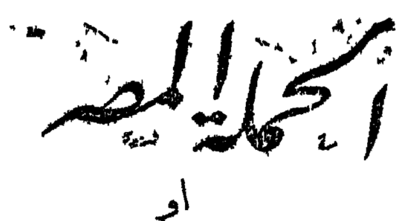


الحملة المصرية

او

الى الصحراء السينائية

فصول عسكرية ومطالعات سياسية في حروب الاتراك وثورة العرب وغير ذلك من المسائل الهامة التي تتعلق بالحرب العظمى

بقلم

علي فؤاد بك

رئيس اركان حرب جمال باشا وقائد الفيلق الثامن

نقله الى العربية

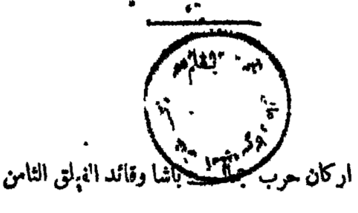
نجيب الارمنازي

المحرر في جريدة الاهرام

بمطبعة حماه سنة ١٣٤٠هـ — ١٩٢٢م



فصول عسكرية ومطالعات سياسية في حروب الاتراك وثورة العرب وغير ذلك من المسائل المهمة التي تتعلق بالحرب العظمى



رئيس اركان حرب جمال باشا وقائد الفيلق الثامن

نقله الى العربية

المحرر في جريدة الاهرام

بمطبعة حماه سنة ١٣٤٠هـ — ١٩٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه رسالة الفها علي فؤاد بك رئيس اركان حرب جمال باشا وقائد الفيلق الثامن الذي كان يقاتل في فلسطين . وقد اطلعت عليها فما اجلت فيها النظرة الاولى حتى مضيت الى آخره. وقام في نفسي ان انقلها الى قراء العربية ليطلعوا عَلَى شيء من تلك الوقائع ومقدماتها وخطط قائديها ومدارك رجالها وعَلَى حديث الحملة التي أُعدت لغزو مصر ، وعَلَى عوامل ثورة العرب كما يراها من هو في منزلة المؤلف ووقوفه عَلَى سير الامور .

ولكل امة نصيبها في هذه الحرب التي حفلت بجلائل الاعمال — وموضع عنايتها واهتمامها من حوادثها وانبائها .

ونصيبنا نحن ابناء هذا الشرق ، في المعارك التي احتدمت في ربوعه وكان لها اجل شأن في مصير بلاده وحياة شعوبه فلا

غرو اذا كان لمطالعة حوادثها اثر كبير في النفوس ولا سيما اذا دونها رجل حضر الوقائع ومارسها وكانت له قيادة فيها ·

ويظهر من كلام منشيء الرسالة ان رأيه قد باين آراء بعض الرجال النافذي الكلمة في قومه وانه يشكو استئثار فريق منهم وافتئاتهم[1] في الامر · وقد وصف رسالته في المقدمة التي انشأها فقال انه اثبت فيها ما بقي في نفسه من اثار الحروب والوقائع وصفات الرجال والقواد ·

ثم قال : « ان الرزية الكبرى التي اطلقنا عليها اسم «الحرب العامة» سيكون لها اكبر تاثير في مستقبل ابنائنا وذرارينا ولذلك فاني ارى من الواجب عَلَى الاحياء الذين اشتركوا في الحرب وكان لهم شأن فيها ، جل او صغر ، ان يذيعوا ما يقدرون على اذاعته مما اطلعوا عليه وشاهدوه فيمهدوا سبيل المؤرخين الذين يريدون ان يعملوا عَلَى تدوين سيرة هذه الحرب · »

ومهما تباينت الاراء فيما كان ينبغي عَلَى الترك من دخول الحرب او عدمه والوقوف في جانب الحلفاء ام في جانب الدول الوسطى وفي اي زمان وعلى اي طريقة فلا ريب ان كل ذلك قد مضى وان العثمانيين خاضوا غمار الحرب في صف الدول الوسطى وكان

---

(١) افتأت برأيه : استبد

لم شأن في سير الحرب واطوارها وقد قضي الامر ولا يغني الندم في هذه الدنيا وليس في مقدور الانتقاد ان يطوي ماقد تم بالامس ويجعله كأن لم يكن شيئا مذكورا »

« عبأ العثمانيون جيشا عرمرما جاب صحراء التيه واغار عَلَى القناة وكنت في هذا الجيش مديراً لشعبة الاعمال الحربية ، فهذه الرسالة التي اقدمها بين يدي القراء هي بمقام حجر صغير في بنيان تاريخ الحرب . واذا كان في الاجل فسحة فسأضع رسائل كهذه تبحث عن معارك اخرى كنت في جملة من صلى بنارها . »

وحدث المؤلف عن نفسه فقال : انه كان ملحقا عسكريا في السفارة العثمانية في باريز لما اعلنت الحرب العامة وتقلب بعد ذلك في وظائف مدير شعبة الاعمال الحربية ورئيس اركان حرب جيش وقائد فيلق

وقد قسم رسالته الى عشرة فصول :

الفصل الاول : في باريس

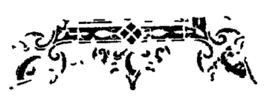
« الثاني : في الاستانة ومنشأ غزوة مصر

« الثالث : في سوريا

« الرابع : في التأهب لغزوة مصر

« الخامس : في الحجاز

نجيب الارمنازي



١ — في باريس

كيف بدأت الحرب العامة — زيارة جمال باشا لفرانسا — عرض الجيش الافرنسي في تموز ١٩١٤ — الحربية في فرنسا — الحرب العامة امر متوقع! — وطنية الافرنسيين — قضية «كايو» — مقتل «جوريس» — اعلان النفير العام في تركيا — مغادرة باريس — في الباخرة .

كنت قبل الحرب العامة ملحقا عسكريا في باريز وقد قلدت هذه الوظيفة وانا في اليمن بعد نجاح التجريدة التي قاتلت الامام يحيى (سنة ٣٢٧) ولكن تعبئة السيد الادريسي ومحاصرة الايطاليين اليمن جعلتاني امكث هناك الى ان نشبت حرب البلقان فقاتلت فيها ولذلك لم يتيسر لي هبوط باريز الا في اواخر سنة ٣٢٩ (١٩١٣)

قضينا في باريز شتاء لا مثال له واتبعناه بربيعها الذي يبهر الانظار حسنا ورونقا واستقبلنا صيف سنة ١٩١٤ الذي جاء يحمل في طياته ماندر مثله في تاريخ العالم من الحوادث الجسام .

كنت راجعاً في غِمار[1] الناس من غابة بولونيا البديعة في التاسع والعشرين من حزيران وانتهيت من جادة بولونيا الى ميدان الكواكب ، وقد شاهد الذين يعرفون باريس الجواد[2] المحتبكة التي تتصل بهذا الميدان وتنتشر منه انتشار شعاعات النور من النجوم فددت بصري الى قوس النصر المشيد في هذا الميدان وكأنه ضُم في هالة من انوار الشمس التي كانت تنحدر عليه في طفلها فما راعني الا تهافت الناس وتهالكهم تهالكا غير مألوف عَلَى ابتياع صحف المساء وكانت تذيع مقتل الارشيدوق فرنسوا وقرينته ، ولم يكن هذا النبأ من الحوادث التي يتوقعها الناس فاعترت قراء الصحف هزة خوف وعلت اسارير هم سحابة سوداء وكأن سكان باريس العائدين من نزهةٍ مؤنقة لمحوا في خفايا الغيب شبح خطر قريب .. وكأن تلك المدينة التي بلغت اهنأ عيش وارغده في ايام السلم الطوال ، قد خامر اهلها ما خامر ذلك الملك الاشوري (بالتازار) لما كان غارقا في طيبات العيش الغرير اذ لاحت له سطور من نار تنبؤه بسوء المنقلب ، فابتدرتهم الخشية من مصيبة دامية هائلة اكفهرت لها وجوهم ولكن

---

(١) غمار الناس : جماعتهم ولفيفهم

(٢) الجواد : جمع جادة وهي معظم الطريق

مضى كل واحد في سبيله وامسك عن اعمال الفكرة في الحادثة يحاول ان يتشاغل عن التحدث بمخاوفها ويتجنب تعجل الآلام قبل وقوعها ·

ثم جاء اليوم الثاني فهدأت قليلا حوادث الصحف كأن النار التي تريد ان تلتهم العالم بامره توارت هنيهة من الزمن حتى تستعر بغتة اي استعار · ولقد فُطر الناس عَلى التفاؤل الذي لم يعتم ان اثر اثره في النفوس فعاد الباريسيون الى سياحات الصيف يتنعمون بلذائذ الموسم ومسراته ·

وقد هبط باريس قبل اسبوع صديق لي من اركان الحرب وحل في منزل لطيف يحاذي منزلي في جوار « الشانزليزه » وكنا نجيل[1] قداح الرأي ونتجاذب اطراف الحديث في الشؤون العامة فذكر لي ذات يوم ان قائدا من كبار قادتنا قال له

« لابد ان تشب نار حرب عامة قبل انقضاء خمس سنين »

ورهن عَلى ذلك بما رآه من اضطراب الاحوال السياسية الاوربية وتعقد مسائلها تعقداً يستحيل حله بغير الحسام · وكان صاحبي يرى ان الحرب علَى وشك الاضطرام وعَلَى حكومتنا ان تعجل باعلان النفير العام علَى شريطة ان تحتفظ بحيادها ·

---

(١) الاجالة : الادارة

وكان يرى ايضا ان كل فريق من المحاربين يخرج من الحرب - غالبا كان او مغلوبا - وقد بلغ منه الاعياء فلا يستطيع ان يدخل في نضال مع الجيش العثماني الوادع [1] ، وبذلك نستطيع ان نصون كل ما نملكه ونرعاه .

اما انا فاعترف انني كنت اميل الى التفاؤل وقد جزمت بامتناع نشوب الحرب العامة لانها ستنزل بالغالبين ، فضلا عن المغلوبين ، من الخسائر ما لا يدع سبيلا لاقدام احد عَلَى اطلاق الحرب من عقالها . وما زلت ارى انه كان في قدرة اوروبا ان تتفادى من وقوع الحرب اياما طوالا ، وكان بوسعها اطالة امد السلم وذلك شأن المريض الذي اشفى [2] عَلَى الهلاك ولا بد له من عملية جراحية فانه يستطيع ان يعيش عمرا طويلا بتعاطي الادوية الموقتة ، وارجاء العملية الحاسمة .

وفي غضون هذه الحوادث زار جمال باشا وزير البحرية فرنسا وكانوا يستقبلونه حيثما حل ورحل استقبال الامراء ولقد صادف في المحافل الرسمية — وغير الرسمية — وفي الصحف والاندية ومظاهر الآراء العامة ، من التبجيل والحفاوة والتناهي في المودة وفرط الاكرام ما كاد يمسح عَلَى خواطر الاسى التي ابقتها

---

(١) الوادع : الساكن (٢) اشفى عليه : اشرف

الحرب البلقانية حينا من الدهر ويسحب عليها ذيل النسيان.

وهذه المظاهر التي لقيها احد وزرائنا تثير في النفوس اقصى العواطف وابعد الاماني . وقد كنت اصحبه في بعض زياراته الرسميه بصفتي ملحقا عسكريا فقال لي بعد زيارة مصنع الطيارات ونحن نذكر حادثة البوسنة : سترى مايكون ! ولما كنا في فلسطين ذكر لي انه لما قال هذه الكلمة لم تكن عُقدت المعاهدة بيننا وبين الالمان . وان كانت المانيا تبسط الوعود لفتيان الترك وتمنيهم الاماني وتسألهم بعض التكاليف الا انهم لم يبتوا حينئذ قرارهم وما زالت تعترضهم الشبهات وقد استطلع جمال باشا رأى الفرنسويين ووعدهم وعدا حسنا بقوله « اذا ضمنت فرنسا سلامة تركيا وامانها من مطامع الروس ومطامحهم فستكون تركيا قريبة منها » فاجابته وزارة الخارجية ان فرنسا لاتدخل في عهد كهذا ما لم تصارح حليفتها روسيا به وتجدها راضية عنه

ولما عاد جمال الى الآستانة وجد المفاوضات خطت بعده خطوات واسعة وقد اثرت سياحته عَلَى الالمان وجعلتهم يعملون عَلَى زيادة التقرب من الترك والاسراع بذلك فالتحق جمال باشا بزملائه وشاركهم في الامر .

وقال جمال باشا انه لم يطلع عَلَى هذه المعاهدة الا ثمخص

او شخصان ، فلم تعرف الى يوم دخولنا الحرب · وقد وصفها احد السادة الاجانب بانها السر الوحيد الذي كتم في الباب العالي

عرض الجيش الافرنسي في ١٤ من تموز تلك السنة فجاء على غاية ما يكون من الرونق والبهاء وقد راقت السماء في ذلك اليوم ورق الهواء ومضى رئيس الجمهورية قبل العرض يرمق[1] الجيش ويطالع كتائبه ومشى على اثره الملحقون العسكريون اربع اربع ممتطين صهوات الجياد التي ارسلتها مدرسة اركان الحرب وحضر هذا العرض سرب من الطيارات ، فهتف الفرنسيون لجيشهم هتافا عاليا وراحوا نشاوى الحماسة والاعجاب وثارت فيهم ثائرة العواطف التي يجدر بها ذلك المشهد ·

اما الجيش الافرنسي فقد تقدم تقدما جليلا بعد سنة ١٨٧٠ و ١٨٧١ فاحسنت القيام جمعية الدفاع الوطني بما عهد اليها به ، وقد اخطاء صواب الرأي الذين كانوا يظنون ان فرنسا سائرة الى الفناء بما تمكن فيها من مبادىء مقاومة العسكرية والاختلافات السياسية والمنازعات الحزبية وخفة المشرب في الآداب والعادات وامثال ذلك ولم يحيطوا خبراً بمكنونات الامور ودقائق اسرارها · وما كان تأثير تلك الاسباب

---

(١) رمقه : لحظه لحظا خفيفا

في وطنية الافرنسيين ووحدة جيشهم واعتدال نظامهم الا تأثيرا ظاهرا بعيدا عن الحقيقة ولم يكن عسيرا على الذين لا يقفون بآرائهم عند الظواهر بل ينفذون الى الخفايا ان يدركوا ما في الامة الفرنسوية من مقومات الحياة وعظم الشأن

وما رأيت في فرنسا شيئا اجل مكانة في نفسي واكبر فائدة لي من معرفة معنى الحرية الذي يتلقونه ويفهمونه فيها جيدا، ولا يمكن أن تالف مدارك الشرقي هذا المعنى وتسكن اليه ..

استرعى بصري ذات يوم اعلانات على جدر نظارة الحربية تقول « فلتسقط الجمهورية ! » وهي بيانات الملكيين الذين يبثون دعوتهم ويقولون فيها ان الجمهورية الثالثة انزلت البلاد الافرنسية الى الدرك الاسفل ولا يمكن انقاذها الا بارجاع الأسرة المالكة التي خلدت لها الشرف الباذخ والتاريخ الزاهر .. واشباه ذلك بعبارات تلتهب التهابا وقد حضوا الناس على انتخاب اشياع الملكيين بعد ان لم يتركوا وصمة ولا عارا الا الصقوهما بالحكومة الحاضرة

ومن اشد بواعث العجب انه مضت ايام على هذه المناشير ولم تمس باذى ، ولقد كانت شرطة الحكومة وحفظة الامن يحرسونها ويجتهدون في صيانتها .

وهم يفهمون من الحريه ما يفهمون من العدل والقانون ٠

وقد عرفتني هذه الحرب مالم اكن اعرفه في بلادي من البون الشاسع بينها و بين فرنسا في معرفة معاني العدل والقانون وخصوصا من حيث اجراؤهما ونفاذهما ٠

وما اعظم الفرق بين فرنسا التي قررت في بلادها عَلَى اثر دعوى « در يفوس » انه لايجوز ان يساب انسان حقه في سبيل منفعة الحكومة وبين الشرق الذي اخطأ كثيرا في تأويل قاعدة استباحة الضرر الخاص في سبيل النفع العام، واساء تطبيقها في كل صحيفة من صحائف التاريخ !

ارجع الى عرض الجيش في ١٤ تموز فاقول : كان بجانبي يومئذ الملحق العسكري الالماني فالتفت الي قائلا : « ان ابي عرض الجيش الالماني الفاتح في هذا المكان منذ خمسين سنة تقريبا وتلك هي الذكرى التي تعرض الان في خاطري » وكنت احاذر ان يسمع ضابط افرنسي هذا الحديث ٠

ذهب يوم ١٤ تموز ويظنه الناظر اليه كسائر الايام الا ان الذي يتغلغل في احشاء الحقائق يستوقف بصره حادثتان بسيطتان وهما ترك الزعيم[1] الكونت اغنانيف الملحق العسكري الروسي

(١) الزعيم : لقب اطلق عَلَى الميرالاي

ومساعده ساحة العرض لحل رموز برقية ، واقامة مأدبة رسمية في مساء ١٤ تموز لم يحضرها من الملحقين العسكريين غير ملحق الروس والانكليز والبلجيك ٠

ان الملحق العسكري الروسي هذا هو نجل الجنرال اغناتيف سفير الآستانة المعروف ايام السلطان عبد العزيز وهو شاب بهي الطلعة ذكي الفؤاد شريف المحتد[1] جليل المكانة في باريس ، تجري في اعطافه خيلاء الفخر ولا تبرح خاطره ذكرى انكسار امته في حرب اليابان وقد قال لي ذات مرة بدون مبالاة مشيراً للسفير الياباني : « انظر اليه انه فلاح ! »

لقد دعاني الكونت السالف الذكر الى تناول طعام الغداء ذات يوم في منزله الانيق في جوار « شان دو مارس » ففاجأته مفاجأة طبيعية عن موقف دولته في هذه السنة وهل هي مصممة على اعلان النفير العام او مفكرة فيه ، فكان جوابه بعد ان حقق النظر في عيني هنيهة من الزمن : « لا ٠ »

ولا ريب انه ليس مما يتوقع ان يفضي ملحق عسكري بحقيقة الامر اذا كان في النية اجراء ذلك ولكن كفاني منه ما رأيت من نظره الي غير مختار نظرة ذات معنى ٠

---

(١) المحتد « ككنف » : الخالص الاصل

توالت الحوادث سراعا في اخريات شهر تموز وقد سألت الزعيم (تاردي) معاون مدير الشعبة الثانية في اركان الحرب الافرنسية عن رأيه في الانباء الرائعة وتعاقب الحوادث المخيفة فقال لي كفيلسوف بعيد النظر رابط الجأش : « لا تخف فلن يحدث شيء من ذلك » . نعم لقد كان الزعيم الاريب المهذب متفائلا مثلي .

وفي اثناء ذلك صادفت ايضا ملحق النمسا العسكري فقال لي وقد اشار بيده كمن ينتضي خنجراً : « اذا اعترضتنا روسيا فنحن حاضرون لمنازلتها وستتبعنا تركيا بعد ذلك » وكان اكثر وقوفا مني على سير الحوادث .

ثم بدأت الحرب المكتوبة وناجزت المانيا فرنسا وقد بذلت هذه ما تستطيعه لاجتناب الحرب فلم تفلح . ولما اعلنت الحرب استقبلتها بحكمة واناة .

تهيأ لي ان اساير كلما اشتملت عليه عاصمة الافرنسيين من خفقان القلوب واضطراب الجوانح ومشيت مع ذلك يوماً يوم لانني لم ابرح باريس في تلك الازمة التي تقدمت اعلان الحرب وجرت بعده .

لاتستطيع امة ان تكون في مدرجة هذه الخطوب اكثر اناةً

وتؤدة ولم يكن الشعب الافرنسي بالراغب في القتال ، ولكن لما وجد ان القتال لابد منه تناسى كل خلاف وشقاق ونهد[1] الى ميادين الحرب بقلب واحد وجسم واحد ولم يسمعنا امثال ماسمع منه سنة ١٨٧٠ من الاسراف فيالتنادي : الى برلين ! الى برلين !

لقد بلغت مني هذه السكينة كل ماتبلغه من شعور وعاطفة

ففي إبان هذه الحوادث كان اهتمام الراي العام وعنايته بحادثتين : الواحدة منهما محاكمة قرينة (كايو) والثانية مقتل (جوريس)وقد قضي امر هاتين الحادثتين من غير ان يستفحل خطرهما بسبب المهالك التي اصبحت البلاد في عرض منها ، ولو لم تكونا في هذا الزمان لكان شأنهما شأن حادثة « در يفوس » التي اثارت من الاختلاف والجدل ماهدد البلاد بالاخطار

وقد ختم (المسيو لابوري) المحامي الشهير دفاعه في قضية قرينة (كايو) بتنبيه لجنة المحكمين وتوجيه نظرها الى ماينبغي من نبذ كل خلاف داخلي وجمع الكلمة والنفر الى ميادين القتال للذود عن حياض الوطن الذي اصبح العدو على ابوابه

ولقد اثار مقتل « جوريس » ثائرة العمال وحرك غضبهم ولكن قادة العمل انفسهم اشفقوا ان يحدث مايثلم[2] الاتفاق

---

(١) نهد لعدوه : صمد له ونهض (٢) الثلمة : الخلل في الحائط وغيره

المقدس الذي نادت به الاحزاب جمعاء · فاذاعوا بياناتهم المختلفة قبل ان يوارى جوريس في لحده وحضوا العمال عَلَى الهدوء والسكينة في ذلك الزمن الذي لم يكن زمن ثأر وانتقام

وكان ابلغ اية في هذا البيان قولهم : انهم قتلوا جوريس اما انتم فلن تقتلوا الوطن !·

ولما كنت اعتقد ان بلادنا تعمل عَلَى صيانة حيادها في هذا الزمن وتحتفظ به اخذت اعد العدد لمشاهدة الحركة الحربية في المعسكر الافرنسي وبينما انا كذلك اذ جاءتني برقية تقول « انه اعلن النفير العام فعليكم ان تتوجهوا الى الآستانة مع تلاميذ المدارس العسكرية »

ولا انسى انني ماكدت اطلع على هذه البرقية حتى سمعت احد كتاب السفارة يقول : « اما والله لنهلكن » فاسكته كاتب اخر ونحى عليه بالملام·

كان لنا في فرنسا ما يربو عَلَى خمسة وعشرين ضابطا وطبيبا عسكريا ولم يكن من اليسير العودة معهم الى الآستانة وقد دب في نفوس الفرنسويين ان اعلان تركيا النفير العام مقدمة للوقوف في صف الدول الوسطى اما انا فكنت مقيما عَلَى تفاؤل لا انحول عنه ولم اعد النفير العام الا لحماية حيادنا اذا جد حادث

وكان هذا جوابي للزعيم (اغنانيف) لما سألني عن القصد من اعلان النفير العام عند وداعي اياه فسره هذا الجواب وقال لي : اذاً لا تريدون ان تهاجموا قفقاسية . ولما ابتدرت الباب ، اسرع فاعطاني معطفي وعصاي كيلا تفوته دقيقة قبل ان يكتب الى (بطرسبورج) بسفري هذا .

رأيت من نظارة الحربية الافرنسية معاملة حسنة في تيسير سفرنا وخصصت لنا مقطورة تسير بنا الى مرسيليا وقد صحبنا (خالد ضيا بك) وكان حينئذ في باريس وعند مغادرة السفارة اقترب مني مستشارها وقال لي باسم السفير واسمه : « حذار من دخول الحرب وعليك ان توصي الرجال المعلومين بذلك » وزاد في حديثه قائلا « اذا كنت عَلَى هذا الرأي » فتبسمت لحديثه لاني كنت اعتقد ان كلامي سيبلغ ما اريد من النفر القابضين علَى ناصية الامة ومقاديرها وقلت انني عَلَى هذا الرأي ، وسأفعل ما استطيعه . وقد اعترضتنا في مرسيليا مصاعب وعقبات اذ انه لم يصرح في اوراق سفرنا بمغادرة « مرسيليا » وتمسك واليها بهذا السبب ليمنعنا من السفر ، وقال لابد له من ان يستأذن وزارة الخارجية

وقد بذلنا كل ما نقدر عليه انا وخالد ضيا بك من وسائل

الاقناع فلم تجدنا نفعا ولم يعدل الوالي عن رأيه وقال لنا « اذا كنتم عَلَى ماتدعون من حب فرنسا هذا الحب فلماذا لا تبقون فيها وتقاتلون في صفوفها التي تقاتل في سبيل الحق والحرية ؟ »

وكان الموقف السياسي عرضة للتبدل السريع في كل آن ذلك ان الحكومة قد استأجرت اكثر السفن بباعث التعبئة وحشد الجيوش وقد لا نبرح فرنسا فيما بعد اذا لم نبرح مارسيليا من ساعتنا هذه . وبينا نحن في هذه المخاوف عثرنا عَلَى طريقة حل لم تخطر لنا ببال اذ نصحنا رجل بالسفر عَلَى سفينة اوشكت ان تغادر مارسيليا الى (جنوه) ولم يكن من اليسير التوجه الى الآستانة منها . فقر الرأي عَلَى اننا بعد ان ننزل في جنوه ننظر في امرنا

فركبنا السفينة ومضت بنا تشق عباب الماء محاذية ساحل (نيس) الفتان وقد شغلتنا رزية الحرب التي تهدد العالم بأسره عن التلذذ بمشاهد البحر والساحل والكائنات . وما كان اهنأ هذا السفر لولا مداهمة الحرب العامة !

ان (جنوة) مدينة حسنة في ايطاليا ووكيل حكومتنا فيها من مواطنينا الارمن وكان قبل ذلك وكيلا لها في افريقيا الجنوبية وما زلنا نذكر ماتناقلته الصحف اثناء عمله هذا من مساعيه في جمع اعانة مسلمي هذه الاقطار للخط الحجازي وقد شاورناه في

كل امر قبل قيامنا ، وصحت عزيمتنا علَى المضي الى « برنديزي » وفيها نحدد وجهتنا

استبدلنا اوراقا مالية ايطالية بالاوارق المالية الافرنسية واستبدلنا ذهبا بتلك وخسرنا بكل منهما عشرة بالمئة وذلك لاجل تذاكر السفر وتناولنا طعاما شهيا ومعكرونة لذيذة في بهو فندق زُين بالازهار المختلفة الالوان ومكثنا ننتظر قيام القطار ·

ثم صعد بنا بعد ذلك القطار المتسلق الى الجبل المطل علَى جنوه وتمتعنا بالنزهة فيه فكانت جنوه ومياه بحر الروم تحت اقدامنا وكم كان يحظى المرء بسعادة في جنوه لولا نشوب الحرب وقد اخترقنا في طريقنا الى (برنديزي) شبه جزيرة ايطاليا من شماليها الغربي الى جنوبيها الشرقي وكانت المقطورات حافلة مكتظة والجو مستو الهواجر[1] فقضينا بياض نهارنا كله تلفحنا ودائقه[2] ويزيد كربنا فيه غطيط النيام وتزاحم النساء والرجال

اما (برنديزي) فهي علَى عظم شأنها في موقعها الجغرافي مدينة مهملة ، وكان فيها خلق كثير من الروس والشرقيين ينتظرون ، وصادف قيام سفينة منها علَى غير المأمول فلم يتيسر لنا الا بعد جهد جهيد ان نحرز مكانا فيها ·

---

(١) جمع هاجرة : نصف النهار في القيظ (٢) جمع وديقه : شدة الحر

ومرت بنا السفينة عَلَى كورفو ، بيرا وسلانيك فجئنــا من بيرا الياسمين الفضي وشاهدنا قصر (اشيليون) ولكن مافي نفوسنا من الوجل حرمنا التمتع بهذه المجالي الباهرة وعرفنا في سلانيك ان مدرعتي (غوبن) و (برسلاو) اجتازتا المضيق فوقع هذا النبأ وقعا اليما من نفوس اهل السفينة اجمعين ، واقبل يســائلنا سفير الروس هل يستطيعون المـضي الى بلادهم وخنقت العبرات نسوة فيهم .

وكان في السفينة المسيو « دو كيرس » سفير الروس في الآستانة سابقا فملأت هذه الحوادث نفس ذلك السياسي دهشة واني لا انسى موقفه ماحييت . ولعله كان يستنبط الاسباب والنتائج و ينظر فيما تكنه ثنايا الغيب و يعمل فكرته في استقبال الترك هاتين المدرعتين الالمانيتين وفي ميل الترك الى الالمان وما نتيجة هذا الميل من سد المضــايق ودخول تركيــا في الحرب . واذا سدت المضايق اضمحل الجيش الروسي لقلة مالديــه من الذخائر وتنتهي به احاديث نفسه الى نشوب الثورة و كأنه القي في خلده ما تصير اليه سلطنة الروس من المصاير السيئة .

لقد امعن المسيو « دو كيروس » في فكـرتــه امعانا جعله بمعزل عن كل شيء حوله و كنت بجانبه اطيل النظر اليه واشاهد

نظراته المتوقدة من وراء النظارة كأنها ترمي الى شيء غير محدود واليأس بالغ منها مبلغه ، اما انا فلم اكن ارى محلا لذلك اليأس الذي الم بالسفير كما اني لم اكن اعرف من شؤون بلاده الداخلية مايعرفه ولم اكن اجد في دخول المدرعتين الآستانة غير حادثة من حوادث الصدفة والاتفاق التي لم يتعمد لها · غير انني بعد ان رأيت ما اصاب روسيا من سد المضايق كشف لي القناع عن حقيقة المسيو دوكيرس واني اشهد لهذا السياسي انه بعيد الغور ، دقيق النظر ، حصيف[1] الرأي ·

كانت تسبح طرادات الانكليز في جوار الدردنيل وقد امر احدها سفينتنا بالوقوف فوقفت وجاء ضابطان يبحثان فيها فسقط في يدنا الا انهما اكتفيا بالسؤال عن وجود معدات وذخائر ولم يتعرضا الى وجود ضابط من الترك ·

وفي الخامس عشر من آب و بعد عشرة ايام من تلقي امر وزارة الحربية كنت في الآستانة ومعي جميع الضباط الذين كانوا في فرنسا فشهدت كرسي المملكة هائجا مائجا يحن الى الحرب والقتال ·

---

(١) حصف : استحكم عقله فهو حصيف

٢ — في الآستانة

زيارتي لانور باشا وجمال باشا — الحكومة باجمعها
بيد انور — آخر اعمالي السياسية — بماذا كان
يعلل الالمان ضباطنا ؟ — ليمان فون ساندرس باشا
« غوبن » و « برسلاو » — عزت باشا — دخول
الحرب — نسف عادية الروس — غليوم وبسمرك .

كان همي منذ دخلت الاستانة ان اعرف العمل الذي أقلده فعرفت اني وُليت شعبة الاعمال الحربية في الجيش الثاني الذي يقوده جمال باشا ناظر البحرية وكان مدير شعبة الاستخبارات فيه (رأفت بك) وقد اصبح زعيما وقُلد قيادة الدرك العامة .

صادف هذا العمل هوى في نفسي ووقع تقلدي اياه موقع الحيرة مني لانه عمل ذو شأن اتاني منقاداً بدون عناء ولا رجاء ولم اكن منتمياً الى حزب ولا لائذا بانسان .

وكان يومئذ في الاستانة معسكر الجيش الاول ومعسكر الجيش الثاني ، ويقود الجيش الاول (فون ليمان سندرس باشا) ويتولى شعبة الاعمال الحربية فيه القائد (عصمت بك) الزعيم مستشار وزارة الحربية بالامس ورئيس اركان الحرب عند مصطفى كمال باشا اليوم = ومدير شعبة استخباراته القائد كاظم بك (امير

اللواء الآن) .

وقد عرف جمال باشا بانه رجل سياسي اكثر منه عسكري فوقع اختيار القيادة العامة عليّ حتى لا يكون هذا الجيش اقل شأنا من الجيش الذي يقوده رئيس لجنة الاصلاح العسكري الالمانية

ثم انه استوقف نظري في الاستانة اذ ذاك شي اخصه بالذكر وهو انشاء قيادة عامة وما كان ذلك العمل الا خطوة في سبيل الحرب ومباشرتها ولكن التفاؤل يقضي علَى المتفائل ان يتوقع الخير من كل شيء فلا يرى الا ما يحب ان يراه ، ويغالط نفسه اذا وجد الحقائق بارزة للعيان وكنت على غير قصد مني اميل الى تفسير الامور وتأويلها كما احب واهوى . فكان يخيل الي ان الغاية الوحيدة من انشاء قيادة عامة هو ان تكون التدابير العسكرية التي بديء بها يوم اعلان النفير العام في قبضة واحدة ، وذلك اضمن لان تسير سيرا حسنا

وكان عليّ بصفة كوني ملحقا عسكريا قادما من باريس ان ازور وكيل القائد العام ، فزرته ورأيت هناك (انور بك) الذي خلفته قبل تسعة اشهر في منزله الصغير في (بشكطاش) ضابطا شابا كريم المهزة[1] لين الجانب ، رقيق الوجه واضعا امامه

---

(١) المهزة : « بالكسر » النشاط والارتياح

صورة (نابوليون بونابرت) قد اصبح في قصره في « نشانطاش » تلوح عليه مخايل حاكم قاهر (ديكتاتور) ففاضت بشاشته واكفهرت اسارير وجهه وقر قراره على ان يفعل ما فعل قيصر ..

ربما لا يوجد في العالم رجل كهذا ، تطور هذا التطور السريع وادرك هذا الشان الجليل في مثل تلك الايام اليسيرة .

لزم وكيل القائد العام فراشه وكان يشكو الما في رجله ، فكاشفته حينئذ بكل ما لديَّ من الآراء فيما يتعلق بالجيش الافرنسي ، وما شاهدته في باريس اثناء اعلان الحرب وبينت له انني لم اكن اشك ان اعلان النفير العام في بلادنا ليس الا تدبير حذر وحيطة لصيانة حيادنا ودرء العوادي عنه وقد اوضحت ذلك في باريس لوزارة الحربية والضباط الذين يهمهم الامر وذلك على حسبان قيام الحلفاء بتدابير حربية توجه الينا .

فما ارتاح أنور باشا لكلامي ولعله وجد فيه اني لم اكن ارغب بدخول بلادنا الحرب - والحرب اقصى اماني الفتى العسكري الجريء - وفي الحرب كل ما يرجوه من منزلة رفيعة وشرف باذخ !

وكان انور باشا يرى ان الله خلقه ليجري على يديه بعض خوارق العادات ولا يخالجه شك في ذلك ويرى ان هذه الحرب

هي افضل وسيلة ينبغي التوسل بها ليبلغ مطامحه وشهواته و ينفذ تلك الخوارق التي قدر لها ان تجري على يديه ، وفي الحرب نجم الحاكم القاهر الشاب وفيها الواجب الذي اعتقد انه أنزل عليه بقضاء وقدر . وغاية هذه الحياة عنده هي ان يموت الانسان ميتة مذكورة ولكن قبل ان يموت يجب ان يحمل بروءوس الحراب حملات عنيفة يقيم بها سوق المنايا و يقعدها وكل شيء هين عليه بعد حملات الحراب لان تاريخ العالم لا يكتب الا بروؤسها .

وفطرة انور باشا تقضي بان لا يكون غير ذلك قضاء مبرما .

ولقد ابقى حديثي في نفسه اثرا لم ينسه مدة الحرب كلها وما هو الا امر لابد منه ونتيجة لازمة لما بيننا من الافتراق في الطبائع والتباين الشديد في الآراء ومسالك الحياة .

كانت قيادة الجيش الثاني في المدرسة الحربية فذهبت الى زيارة رئيس اركان حرب هذا الجيش كما توجب الوظيفة وهو الزعيم (فوق فرانكنبرغ) الالماني وكان قبل الحرب رئيس اركان حرب فيلق ، وهو متفرد بين اقرانه بالمضاء وصحة العزيمة . فرأيته في غرفة اركان حرب الجيش مكباً على الخارطة يناظر اركان حرب الاتراك بما تكون عليه حدود تركيا بعد هذه الحرب ، وكان على الخارطة خطوط كثيرة تدل على ان مناظرة

طويلة جرت في هذا الشأن وهذه الحدود تمتد الى شمال القفقاس وتمر بجوار نهر (الفلغا)[1] اما مصر فهي داخلة بالحدود بلا خلاف والمناظرة قائمة حول القريم والتركستان . فسبق الى ظني انهم يتفكهون ولكن مضى رفاقي في حديثهم جادين غير هازلين وكان ذلك اثر ما اقنعهم اياه رئيس اركان الحرب منذ اعلان النفير العام .

ثم سرنا الى حجرة الرئيس فسألني اذا كانت لي معرفة سالفة بجمال باشا وقال انه لا يرمي في اعماله الا الى غاية واحدة هي العمل بكل ما اوتي من قوة عَلَى اسعاد المملكة العثمانية ورفع شأنها ، وذكر انه يتوقع ان اكون عونا له وعضداً . وافضى الي بعد هذا بما يعن له في انظمة المعسكر الداخليه وبين انه لا يجوز ان يتصل شيء بقائد الجيش الا عن طريقه ، فلا يجوز لاحد من ضباط المعسكر ان يراه الا بعد استئذانه ولا يجوز ان يبعث اليه بورقة ما لم يكن قد اطلع عليها وذلك بصفته رئيس اركان الحرب وقائد المعسكر وهو لا يريد بذلك الافتئات عَلَى القائد والاستبداد به ولكنه يعتقد انه لابد لادراك النجاح و بلوغ المنال من اتباع هذه القواعد والسير عليها .

---

(١) هو النهر الذي ينبع من جبال الاورال و يفصل قطعة اوربا عن آسيا

ولما كنت قد بلوت هذا الامر وعجمت [1] عوده وعرفت ما يكون من الاثر الضار في الجيش اذا توطدت اركان الصلات مباشرة بين ضباط فيه وضباط آخرين اسمى رتبة منهم وانفد كلمة وايقنت ان سلامة المعسكر وامنه يتوقفان على ان لا يتعدى الضابط طوره ولا يتصل بغير رئيسه المباشر ، شاركت الرئيس مشاركة قلبية وقلت له ان هذه الآراء هي سبيل السلامة الوحيد وانني بصفتي العسكرية سأكون خادمه الامين واضفت الى ذلك انني لم تكن لي بجمال غير معرفة مجملة وقد اتصلت به ايام كان في باريس بمقتضى الوظيفة .

زرت جمالا صبيحة اليوم الثاني فرأيت فيه انقباضا وحشمة اكثر من كل وقت رأيته فيه ، وكأنه تمل من ذلك الحين بحميا المنزلة الشريفة التي كتب له احرازها وكان يجد جليسه في هذه السكينة والطمانينة ما يجد فلا يفسح له مجال القول بلزوم السلام والحياد ، غير انني بعد ما ذكرت ما أوليته من الشرف بالوظيفة التي قلدتها اتيت بحديث مستشار السفارة في باريس وقلت انني على رأيه « في اجتناب الحرب » . فقال لي جمال وانا على هذا الرأي ولا اري ان نقذف بالمملكة في بحر لجي ليس له قرار

(١) عجم العود : عضه ليعلم صلابته من خوره

قبل ان يكشف القناع عن حقيقة الموقف واني ابذل ما في وسعي لتأجيل اعلان الحرب ، ولكن يتعين عليّ اذا رأيت روسيا — عدوتنا اللدودة — عَلَى مقربة من الهلاك ان اكون صاحب الضربة الاخيرة ·

اما معنى هذه الكلمات التي تظهر عليها مسحة الحقيقة فهي ان محافظتنا على الحياد الى آخر الحرب امر قد فرغ منه وقرّ الرأي عَلَى المناضلة في جانب الدول الوسطى الا انهم يفضلون مباشرة القتال في يوم يقع عليه الاختيار ·

لم يف جمال بهذه المنية لان المنى كلها خضعت لعزائم راسخة مكينة لاتقاس بها عزيمة جمال وارادته فانهم لم يقاتلوا في اسعد الايام وايمنها بل قاتلوا في يوم عبوس اغبر يوم كانت جيوش الالمان بقيادة « هندنبورغ » تنحاز الى (بومرانيا) في ساحة الشرق وكانت هذه الجيوش كذلك خارجة من معركة المارن التي خسرت بها كل ما ترجوه من دخول باريس ظافرة ·

كانت المملكة العثمانية في قبضة الاتحاديين وكان الاتحاديون في قبضة المركز العام وكان المركز العام في قبضة الحكام الثلاثه وكان الثلاثة في قبضة انور يسوقهم سوقا عنيفا · اما مقام السلطنة والقوى التشريعية وحزب الاتحاد والترقي والحكومة

الرسمية والمطبوعات والراي العام فلم تكن الا اشباحا ماثلة وخيالات مصورة ·

وكان جمال باشا بين القابضين على زمام الامور موصوفا بشيء من الاعتدال فلما وجدته عَلَى هذا الرأي ادركت انه لم يبق لي فسحة في الرجاء وكان حديثي معه آخر عمل سياسي تستدعيه وظيفتي القديمة وهي تنتهي متى تقلدت وظيفتي الحديثة في الجيش وقد صحت عزيمتي عَلَى ان احبس جهودي ومساعي وكل ما اوتيت من قوة ادبية ومادية على وظيفتي العسكرية ومضيت في ذلك مدة الحرب كلها ·

قضى رجال اركان الحرب الاسابيع التي تقدمت المناجزة وهم دائبون كل الدأب و باذلون اقصى الطاقة يضيفون الى وظائفهم اليومية التفتيش والتمرين والقاء المحاضرات واذا اختلسوا ساعة من عملهم اقبلوا ينظرون في امر الحدود المستقبلة و يعللون انفسهم فيها باعاليل المنى وكان ضباط الالمان يزورون ظهيرة كل يوم فون سندرس باشا فيبثونه ما عندهم و يبثهم ما عنده ومن جملة ما أُمروا به ان يثيروا عاطفة الحماسة في قلوب ضباط الترك و يهزوا اعطاف الجيش باحاديث الحرب فيعدونه الى خوض غمارها ومن الوطنية الصادقه قيامهم بهذا الواجب من حيث انهم المان ·

وكان رئيس اركان الحرب يعمل الفكرة في امري اذ يراني في اثناء مناظرات الحدود غير منساق مع رفاقي في التحدث بتلك الاحلام اللذيذة ، فيعني باقناعي عناية خاصة اكثر من اي واحد غيري وقد قال لي ذات مرة وهو يتحدث عن حدود لا اذكرها في آسيا : « ولماذا لاتكون هذه حدود بلادكم ؟ » وحقا لا ادري لماذا لا تكون ؟ وما من سبب يدعونا ان لاننتماها !

انها كلمة لايهون الجواب عليها ! وقد رأينا في هذه الحرب كثيراً من حجج الالمان ما كان ظاهرا خطله[1] الا انه لايسع المرء ان يرد عليها ومن جملتها قول رئيس اركان الحرب متهكما : « ولماذا لاتكون هذه حدود بلادكم ! » وكان يغلبني الحياء لانني كنت السبب في هذا السوآل .

كان الرئيس يجمع الضباط ساعة في اليوم ويعلمهم مبادىء اللغة الروسية اذ يمكن ان يتولى الجيش الثاني الاعمال الحربية في القفقاس و يردد في حديثه ان « غوبن » و« برسلاو » ضمنتا لنا السيادة في البحر الاسود . ومع ذلك ما كانت لتدخل تركيا الحرب على الاثر وقد احتفل ذات مرة بعرض الاسطول فشاهدنا بحارة (غوبن) و (برسلاو) واضعين عَلَى رؤوسهم القلانس

(١) خطل الرأي : فساده

العثمانية واذا نادوا بالهتاف نادوا بكلمة « هوراه »[١] وقد قال لي رئيس اركان الحرب ذات يوم وعيناه مغرورقتان بالدمع : « اذا كانت تركيا لاتريد ان نقاتل فنحن نريد ان نذهب الى بلادنا . انه من السبة والعار ان تكون بلادنا في خطر و يكون اخواننا في السلاح يناضلون العدو ونحن نرتع في بحبوحة الدعة والراحة وهؤلاء بحارة « غوبن » و « برسلاو » يقولون انهم لم يقدموا هذه البلاد للهو واللعب ولكنهم قدموها للحرب والقتال . »

وقال لي مرة اخرى : « نحن نقول لهم اذا كنتم لاتقاتلون فأذنوا لنا بالعودة الى بلادنا . وهم يسلوننا قائلين كلا اننا سنقاتل فهونوا عليكم ! »

وذكر لي ان قيصر المانيا ارسل الى (ليمان فون سندرس باشا) برقية يقول فيها : (اذهب الى انور باشا بنفسك و بلغه ازكى تحاياي وقل له ان للقيصر كل الثقة به وان لجنة الاصلاح و برأسها فون سندرس باشا رهينة امره وطوع ارادته .)

وحسب انور باشا مجاذبة لهذه العوامل فان قلبه لايستطيع عليها صبرا اكثر مما صبر ، ولم تكن تخامره ريبة بان الالمان يظفرون باعدائهم في هذه الحرب ، وماذا تستفيد

---

(٢) كلمة في الالمانية تقابل «ليحي» في العربية

تركيا اذا احرزت المانيا الفوز الحاسم بسيفها وعلى الذي يريد ان يجتني ثمر الوقائع يانعا ان يكون له حـظ كبير في ادراك النصر ولذلك يتحتم دخول الحرب في اجل قريب ٠

وكان انور باشا يقول بعد التمارين الحربية التي كانت تجري مرارا في الاسبوع وهو في موقف الناقد كما هي العادة المتبعـة : « ان الجيش العثماني سيغسل عنه العار الذي اورثـته اياه حرب البلقان ! » فكان يضرب بهـذا القول عَلَى اشجى وتر في قلوب الضباط العثمانيين ، ولم يبقـ لدخول الحرب الا تعيـين اليوم او الاسبوع ٠

احببت ان ارى « عزت باشا »[1] واستطلع رأيه في هـذا الشأن فزرته وسألته عن افضل طريقة يتعين على البلاد سلوكها فاجابني بدون توقف : « عليها ان تسلك خطة الحياد المحض »

وما اوعر هذه الطريق في تلك الايام ! لقد كانت البلاد تهوي هويا في السير الى الحرب ولم يكن لها ركن تأوى اليه ٠ وكان هذا الرجل يعرف سبيل السلامة ولكن لم يكن يملك من الحول والقوة ما يؤيد به رأيه ٠

كلما كنت افكر في الوطن الحبيب وجده العـاثر سواء في

(١) هو قائد الحملة التي حاربت الامام يحيى في اليمن سنة ٣٢٧

غضون الحرب او قبلها او بعدها كان يرمضني قبل كل شيء ان تمر بنا هذه الاحداث وعزت باشا على قيد الحياة .

ان عزت باشا رأى كل شيء وعرف كل شيء والبلاد العثمانية لم تنكره ولم تجهل عظيم قدره وجليل امره ، وليس له ان يدعي ما ادعاه (سيبيون) من انكار وطنه اياه لان عزت باشا دعي من منفاه بعد الانقلاب وقلد رئاسة اركان الحرب العامة وتقلب في السنين العشرة الاخيرة في مناصب مختلفة من جملتها وزارة الحربية والقيادة العامة والصدارة العظمى ولكنه كان يخرج من جميع هذه الوظائف بدون ان يخلف فيها الاثر الذي يجمل به و يناسب مقدرته واستعداده ، وكلما اجلت رأيي في استكناه سر هذه المعضلة كنت اذكر كلمة (لطلعت) وأجدها الحل الوحيد :

في اثناء حرب البلقان واضمحلال جمعية الاتحاد والترقي وقبيل حادثة الباب العالي سألت طلعت باشا ماذا يراه فقال لي : « نحن نريد ان نذهب الى ادرنه ونحن نبحث عن الرجل الذي يسير بنا ، ذهبنا الى ناظم باشا وقلنا له ان الاتحاديين بأسرهم قيد اوامره اذا قرر مهاجمة ادرنة فأبى ذلك ، ثم ذهبنا الى محمود شوكت باشا وقلنا له عين المقال واضفنا اليه اننا نشعل ثورة

ونقلده على اثرها زمام المملكة ، فكان جوابه : انني لا ارجو ان نتمكن من الدفاع في (شطالجة) فكيف بالهجوم على ادرنة ؟ ثم ذهبنا الى عزت باشا فحادثناه في الموضوع فألقى علينا حسابا يبين ما عند العثمانيين من القنابل والمدافع وسائر معدات الحرب والكفاح وقال ان رجاء الفوز لا يزيد عن ٣٠ او ٤٠ بالمئة وليس من رأيي الاعتماد عَلَى هذا الرجاء الضعيف والمغامرة بمستقبل الجيش والبلاد ·

وهنا قال لي طلعت : « لو ان عزت باشا استمد من روح (نابوليون) ٣٠ او ٤٠ في المئة لسمت آية النصر الى ٨٠ في المئة »

فأجبته غير مختار : لو كان ذلك كذلك لكنتم غير احياء ووردتم حياض المنايا التي وردها قبلكم اعضاء (الكونفانسيون) فاشكروا الله كثيرا لان عزت باشا لم يكن طماحا مثل نابوليون فقال : ليته كان !

اجل لو ان عزت باشا جمع الى سداد رأيه و بعد نظره وسعة صدره الحرص عَلَى المنازل والرتب ، ربما كان في الاتراك بمقام « فنزيلوس » في اليونان ولخرج الترك من هذه الحرب العظمى باحدى الخصلتين : اما الحظ الهنيء واما الضرر اليسير ·

كان معسكر الجيش في مضارب فوق طرابية عَلَى ربوة

مشرفة على المضيق في أبان معركة المارن فلم يكن رئيس اركان الحرب ليصدق بحال من الاحوال ان الجيش الالماني خسر المعركة وتقهقر الى الوراء وكان يدعي ان لالمانيا جيشا لم يعرف عنه شيء بعد يعمل في طي الخفاء عَلَى الاحاطة باريس من الشمال والغرب احاطة السوار بالمعصم فلا يعبأ بذلك التراجع الموقت الذي لم يقصد منه غير اكتساب الزمن ولم يكن يأبى ان يساجلنا في هذا الموضوع ، ولم يكن يأبى ان يسجل ماقاله عَلَى ان يُقرأ بعد ايام ثلاثة فتتبين صحة نظره واذا لم تجر الحوادث عَلَى حسب ما ادعى وارتأى فانه يعد نفسه ضابطا ساقطا بين ضباط اركان الحرب . ولم يعدل رئيس اركان حربنا عن هذا الرأي .

ولقد اخطأ الالمان خطأ عظيما في حشد الجيش بنقلهم قسما كبيراً من قواهم في آب سنة ١٩١٤ من الساحة الغربية الى الساحة الشرقية فكان جزاؤهم عَلَى هذا الخطأ ما اصابهم من ضياع معركة « المارن » التي كانت مقدمة لضياع الحرب كلها ، وفي هذه الاحيان دخلت بلادنا الحرب كما هو معلوم من ابتداء امرها .

و بعد مضي ايام عَلَى ذلك خطب قائد الجيش بفرسان الضباط عند انتهاء تمارين عسكرية في جوار « اياستفانوس »

حيث عادية[1] الروس منصوبة فقال : « اخطأ بعض الجبناء فيما توهموه من ان عمل اسطولنا في البحر الاسود كان برأي الاميرال الالماني وحده ليجعل الحكومة العثمانية امام حادث مقضي ، الا انه أُجري بقدر وامر سبق ولم يكن قادة الالمان وامراؤهم في البر والبحر الا عمالا عند الحكومة العثمانية ولم يكن الرجال الذين عُهد اليهم بمقاليد الامة ومقاديرها في قبضة احد وتحت تاثير سلطان ما وهم احرار في آرائهم واعمالهم ، وقد اختاروا خوض معامع الحرب كيلا يعيش الاتراك في ذلة فاما ان يذودوا بالسيف عن حوض عزهم و يقاتلوا دون استقلالهم وحقهم حتى يبلغوا ما يؤملون واما ان يموتوا ميتة كريمة . »

وعلى الاثر أُمرت كتيبة الاستحكام بنسف تلك العادية فنسفتها نسفا .

فاما وقد اصبحت الحرب امرا مقضيا وكان شأنها الذي صارت اليه كما اسلفنا وجب علينا كما قال لي احد اصدقائي مواجهة الحقائق واستنفاد القوى حتى نخرج منها ظافرين .

لقد كلف القياصرة الشعوب التي عبدتهم ثمنا غاليا . فلا ينبغي ان يقع من الامة العثمانية موقع التعجب ذلك الثمن الغالي

---

(١) العادية : بناء او ركز ينصب تذكاراً لواقعة شهيرة وغيرها

الذي سامها « انور » اياه ، فهي التي ولته وزارة حربها وقيادة جيشها قبل ان ينيف عَلَى ثلاث وثلاثين سنة ، واذا كان يسيراً نقد الحوادث وتمحيصها بعد انقضائها فمن الظلم ان لا ينظر اليها وهي تجري بدقة وامعان ٠

ان استبداد ثلاثين سنة فتّ في عضد الجيش العثماني واوفى به عَلَى البوار ، وقد نهض هذا الجيش في (ماكدونيا) وقام بثورة ١٠ تموز ودخل في معمعان السياسة بعد هذه الثورة فانتشرت اموره واستسرت الفوضى فيه وفي ابان هذه الفوضى نشبت حرب البلقان وذهبت بما ذهبت به ٠

كان من الواجب « الذي لامناص منه » انقاذ الجيش من الفوضى بعد انتهاء الحرب البلقانية وتجديد شبابه ولا يستطيع القيام بهذه المهمة الشاقة الا رجل عزيز الجانب منيعه وكان انور باشا ذلك الرجل ، وكان المكواة لداء الفوضى المستفحل ٠ فقبض عَلَى ازمة الجيش قبضة الحاكم القاهر وانتزعه من الشيوخ الواهنين والشبان الاغرار فكفر الجيش عن سيئاته الماضية كلها واشتد كاهله في بضعة اشهر وساد فيه الضبط والنظام ولم يعد يستطيع اذا نودي به الى الحرب الا ان يفدي نفسه و يبذل دمه ٠ وارزاء الماضي القريب تدعو الى اجتناب كل خلاف وتحذر من دخول

مطامع السياسة مرة ثانية ·

بقي الجيش العثماني اربع سنين يناضل اهوال الطبيعة وشدائدها ويقاتل خصوما اقوياء اكثر منه عددا وعدةً وهو خاوي الفؤاد عاري الجسد خائر القوى · فلقائل ان يقول ان التاريخ لم يشهد مثل ذلك ·

دخلنا الحرب في عيد الاضحى فسألت عزت باشا اذا كان يرجى منا الفوز في هذا الحرب فقال ان رجاء الفوز تابع لنسبة القوة الى المقاومة ومجموع قوى المانيا والنمسا اضعف من روسيا وفرنسا وانكلترا فهذه النسبة ليست في جانب الالمان · و يلوح لي ايضا ان الجيش الالماني جيش عظيم ولكن لم يتيسر له القائد الكفء ·

فاذا كانت هذه هي النسبة في مبتدأ الحرب فما عسى ان يقال اذا اضفنا اليها ايطاليا ورومانيا واميركا ؟ فيا بؤس تركيا ماذا خبأ لها جدها العاثر ؟!

لا ينكر علَى الجيش الالماني عظم خطره وعلو مكانته · ولكن هل كان القيصر غليوم قائده الاكبر والجنرال « مولتكه » رئيس اركان حربه مضطلعين باعبائه ؟ وهل يستطيع انسان ان يكون صاحب السلطان في مملكة كبرى واخصائيا في الزمن نفسه بتعبئة جيش عرمرم مؤلف من ملايين فيقوده قيادة حسنة و ينفر به

عن مواقف الزلل ومواضع الخطل ٠

ان حشد الجيش فن كسائر الفنون وصناعة كسائر الصناعات فعلى من يريد ان يمتاز به ان يقتصر في حياته عليه ويكون في مواهبه الفطرية اهلا له ٠

وكان القيصر يدعي فوق ذلك ان له معرفة بالخطابة والآثار العتيقة والعمارة والموسيقى على ان القرن العشرين هو قرن تقاسم الاعمال والمساعي ، قرن الاخصاء والتحرر فلا يستطيع انسان وان كان هو القيصر الالماني ان يدعي بانه عارف باشياء كثيرة ٠

ان القيصر من الفريق الذي ينعته الافرنسيون بانه يلم بكل شيء ولا يجيد شيئا ولكنه ليس كاحد من الناس بل هو شديد الخطر في تعاطيه كل شيء ٠

في سنة ١٨٧٠ كان غليوم الاول قائدا عاما وكان الجنرال « مولتكه » رئيس اركان حربه وداهية عصره ٠ ومن اعظم مزايا غليوم الاول انه كان يختار الرجال الافذاذ الذين يبخل الدهر بمثلهم كالكونت « بسمارك » والجنرال « رونه » والجنرال « مولتكه »

اما الجنرال مولتكه رئيس اركان الحرب في سنة ١٩١٤ لم يكن له من (مولتكه الكبير) الا اسمه ، دع ان سنة ١٨٧٠ غير

سنة ١٩١٤ والبون بينهما شاسع ·

وقد كنت سمعت كلمة عن لسان القيصر لما قلد الجنرال مولتكه رئاسة اركان الحرب يرد بها عَلَى المعارضين في تعيينه والممترين بكفائته قبل الحرب بسنين وهي : « انني رئيس اركان الحرب في الحرب واما في السلم فحسبي منه الاسم » وفي هذه الكلمة كفاية في تعرف العجب الذي تنطوي عليه جوانحه والانانية المفرطة التي يحملها في قلبه ·

وما اعظم التباين بين غليوم الاول الذي كان يجل اعاظم دهره و يبرهن بذلك عَلَى عظمته الحقيقية و بين سليل آل « هوهنزلرن » الاخير الذي كان يقصي الاكفاء عن منازل الحكم!

وهذا التباين هو الذي حمل العالم باسره فيما ارى عَلَى مقاتلة الدول الوسطى وكان السبب الفرد في اضمحلال جيوشها وغروب نجومها ·

الا انه درسٌ موجع لاصحاب السلطان الذين يستوحشون من الاكفاء البارعين ·

وهنا انقل بعض ما دونه بسمارك في خواطره :

« كان القيصر الشاب قد اذاع اذاعة عامة عَلَى خلاف رأي مستشاره بسمارك فقال لرجل يأتمنه عَلَى السر :

« لقد كتب بقلمه هذه الاذاعة وهو يثق بنفسه ثقة عمياء ولكن عقله لا يدرك حقيقة امره ولا تثمر هذه الاذاعة الا الشر، وقد افضيت له برأيي ولكنه عَلَى جانب عظيم من الكبرياء لا يرى معها ان يتنازل الى سماعه »

ولما بحث البرنس بسمارك عن استقالته قال : « صحت عزيمتي على الاستقالة وكنت احسب انه يشكر لي صنيعتي اذا بقيت معه سنين اخرى ولكن علمت انه يرغب من صميم فؤاده ان يتخلص مني باقرب آن فيسوس البلاد برأيه وحده ولا يشاركه احد بالشرف والمكانة في تدبير المملكة »

« لقد ملني وبرم بي واخذ يرمي ببصره الى عبد اكثر طواعية مني . ومعاذ الله ان اسجد له او ارضى بان اكون كلبا يتبعه . انه يريد ان يخاصم روسيا التي تمكنت من التقرب اليها »

« سئمت دسائس القصر والوف الرذائل وتقارير العيون والجواسيس ولذلك لم ار محيصا من الاستعفاء ولا معدلا عن صيانة نفسي من مواقف الضعة والهوان امام شاب غر يكافئني عَلَى سابق اعمالي وجهودي بمثل هذه المكافئة . »

« تم استعفائي عَلَى غير رغبة مني وقد اراد القيصر ان يخفي حقيقة الامر عن عيون الرأي العام فذهب اليه رجل تخرج عَلَى

يدي ً وقال انني مصاب بالمورفين فاستدعى القيصر الشاب طبيبي وسأله ان يعطيه تقريرا يعزي فيه استعفائي الى اسباب صحية فأبى الطبيب ذلك ! »

« يالها من مثلبة اخلاقية ، انهم لم يحجموا عن اجتراح اي سيئة في سبيل مرضاته » ·

واني غنيٌ عن التقفية عَلَى هذه الكلمات

— منشأ غزوة مصر —

لم تثبت الحوادث مقدرة اسطولنا عَلَى ادراك السيادة في البحر الاسود فاغفلت الفكرة القائلة بنزول الجيش الثاني في ساحل القفقاس واخذت النفوس تمايل شيئاً فشيئاً الى غزو مصر بعد ان وجدنا ذلك الباب مغلقا

ان في حديث غزوة مصر شاعرية جذابة وخيالا بديعا · فمن الذي استخرج هذا الخيال واثار هذا الدفين ؟ والغالب انه من بنات فكر الزعيم كريسبك وقداوحي اليه به من المعسكر الالماني

يقولون ان الشرق موطن الشعر والخيال ولا اظن شرقيا عرضت له هذه السانحة ·

لم يكن للدول الوسطى اتصال ببريطانيا الا من جهة مصر وعلاوة عَلَى هذا فأن قناة السويس كانت سبيل الجيوش التي

تنقلها بريطانيا العظمى من مستعمراتها في آسيا واوقيانوسيـا فاذا تعذر فتح مصر لم يكن متعذرا اعاقة هذه الجيوش وابقاؤها اياما طوالا في قناة السويس واقصاؤها عن ساحات القتال الاوربية التي فيها تبلغ الحرب اجلها

هذا هو وجه الغزوة من طريقـة فن التعبئة ولكن لم يشر احد اليه ولم تنشره البلاغات والبيانات التي كانت تذاع كل يوم بغير الفتح الذي سلب لب الامة واستهوى فوآدها وسحرها بمناظر الاهرام الخلابة وحل منها محلا غلب عَلَى كل شيء ·

وكان ذكي باشا الحلبي قائد الجيش الرابع وليّ هذا الامر بادئ الرأى وقد عارض فيهْ بجرأة عظيمة واثبت تعذر الاتيان به مستندا عَلَى حسابات مختلفة وبراهين ساطعة ·

وقد اصاب كبد الحقيقة فان الجيش الذي يريد ان يتوجه الى القناة يحتاج الى سكة حديدية اولها عند محطة (سان سباستيا) التي لم يتم انشاؤهـا وبينها وبين نابلس مسـيرة ١١ كيلو مترا ، وبينها وبين قناة السويس مسيرة ٥٠٠ كيلو متر ومن هـذه المسافة ١٠٠ كيلو متر كلها في صحراء التيه الجرداء القاحلة التي لا يجد فيها المرء ما يقوته ويبل ظمأه ، وكذلك فان البقاع الممتدة بين (سان سباستيا) وبين بئر السبع تفتقر الى غيرها في معيشتها

ايام السلم فضلا عن ايام الحرب ٠

ومن جملة المصاعب نقل ارزاق الجيش ومؤنه ومعداته مسافة خمسماية كيلو متر وحمل المياه للمقاتلة والدواب عَلَى ظهور الجمال مدة ايام واذا ذللت كل هذه العقبات فان الجيش يصل الى قناة السويس و يقف امام العدد الانكليزية وجهاً لوجه ٠

كل ما ينفق في هذا السبيل من جهد وعزيمة لا يؤدي الا الى نتيجة واحدة وهي ان يدخل الجيش العثماني في ساحة مرمى القنابل الانكليزية حيث اقيمت المعاقل المنيعة عَلَى عدوة القناة الثانية بيد ان كل برهان وكل حساب وكل حكمة كان يذهب ضياعا وقد حرم البحث في مجال الحقائق والممكنات وقرر القيام بغزوة مصر كيفما كان الرأي وارسل ذكي باشا الذي اعمل فكرته واستخرج حسابه الى المعسكر الالماني بصفة مندوب عسكري عثماني وقلد جمال باشا (الصغير) قائد الفيلق الثامن قيادة الحملة وولي رئاسة اركان حربه فون كريس مخترع هذه الفكرة وعين الزعيم علي فؤاد بك (امير اللواء الآن) رئيس اركان حرب الفيلق قائدا للفرقة الخامسة والعشرين التي هي اساس الحملة ، وتولى جمال باشا قيادة الجيش الرابع ٠ وقد هز هذا النبأ مقر الجيش هزة لاتوصف فرغب كل انسان ان يذهب معه و يقذف

بنفسه في صحراء التيه ومجاهلها . وكان ملاك الجيش الرابع ناقصا فأتم بضباط من مقر الجيش الثاني وصحب جمالا بعض ضباط اركان الحرب . اما الذين خلفوا في الآستانة فقد ذهب بهم اليأس وتولاهم القنوط .

وللهياج سلطان كبير عَلَى القلوب تضطرم فيه العواطف وتتحكم بالعقل وتتغلب عليه . وغزوة مصر من زناد ذلك الهياج القادحة . وكان علينا ان نقنع انفسنا وننتزع الشبهات من صدورنا حتى نتولى اقناع غيرنا وكل شبهة تلم بنا او شك نهوي اليه هو الكفر او من دونه الكفر بالنظر الى ما في قلوبنا من السوانح العلوية الصافية فقام مقام العلم والرأي والفن : العقيدة والايمان والرجاء .

سار بعد ذلك معسكر الجيش الرابع الجديد في اخريات خريف رائق بهيج من محطة حيدر باشا وضلوعه تكاد تنحني عَلَى ذلك الايمان الراسخ وجاء فتبعه مئات الوطنيين يدعون له باليمن والسعد . وقد استوقف الانظار حينئذ القائد رأفت بك الذي كان مرتديا كسوة رمادية جميلة لاينفذ الماء منها ترمز الى صحراء التيه وتستهوي القلوب بذكراها .

٣ — في سوريا

رحل معسكر الجيش من الآستانة الى سوريا رحلة ذات رونق و بهاء وابهة وجلال ، فكان الناس يخرجون لاستقبالنا في كل موقف من مواقف القطار عَلَى اختلاف طبقـاتهم من العلماء والكبراء ورجال الملكية والعسكرية وعامة الامـة وصبيان المدارس فيلقون الخطب بين يدي جمال و يرفعون اصواتهم بالدعاء

زرنا في (قونية) حضرة مولانا جلال الدين الرومي وزاره معنا رئيس اركان الحرب الالماني وفي نفوسنا من هذه الزيارة اثر روحاني ملأنا يقينا ورجاء ، وقداقلتنا السيارات من (بوزانطي) وقطعنا مضيق (كولك) الشهير الذي شهد موكب الاسكندر الجليل ومواكب الغزاة الفاتحين بين اوروبا وآسيافلايبرح مدلا بنفسه ، معجبا بمكانته . واستقبلنا التلاميذ في اطنه وطرسوس والاسكندرونة بالرايات وهم ينشدون اناشيد الانتقام للروملي وفي جماتهم بنيـات يتامى يرددنها بصوت شجٍ يستـدر العبرات و يرمض[1] الخواطر

وما اكثر ما يجب علينا وما اكثر ما حملنا الدهر اياه ، وطالبنا

---

(١) رمض اليوم « او الخاطر » : اشتد حره

به كفتح مصر واسترداد الروملي ؟؟

امطرت السماء بادية (كيليكيا) مطرا وابلا منهمرا سالت به القيعان والاودية وطغت[1] المياه في بعض الاماكن فازالت خطوط السكة الحديدية عن مواضعها واضطرتنا الى قطع مراحل عَلَى ظهور الخيل بسبب السيول والمياة الطاغية

كان مسيرنا بين (طو براق قلعة) والاسكندرونة في ليلة اضحيانة[2] قمراء لاانساها ماحييت مهما نسيت بين امواج بحر الروم و بين هدير السيول ، وفي هوآء طلق عبق بارواح الجنائن والخمائل[3]

كاد يكون الطريق الذي سرنا فيه باجمعه مغمورا بالمياه شديد الحزونة والوعوثة[4] غير اننا لم نعبأ بهذه المتاعب

كانت خيالات الاهرام تروح عنا وتنفس كربنا وكأن نسمات كيليكيا العليلة وذلك البحر اللجي الذي ارسل عليه القمر اشعته سقيانا كأسا من رحيق[5] مختوم دارت في روؤسنا سكرته

(١) طغى : جاوز الحد ، وطغى السيل : جاء بماء كثير

(٢) اضحيانه : نورها كنور الضحى « والضحى ارتفاع النهار »

(٣) الخميلة : الشجر المجتمع الكثيف

(٤) الحزونة والوعوثة : غلظ الارض وشدتها

(٥) الرحيق : صفوة الخمر

وذهبت بنا كل مذهب فلا ترجع الينا نفوسنا الا عند مهواة سحيقة[1] اوقطع من الصخور مبعثرة او عند رؤية بواخر رصد تشق عباب اليم ولكن لا تلبث سكرة الخيال ان تعود فتستولي علينا وتستأنف سيرتها الاولى .

ولقينا في حلب وحماه وحمص وبعلبك من الحفاوة والاكرام اوقع مما تقدم . فكان الشعراء يتلون قصائدهم الحماسية ويجلون بما اوتوه من بلاغة فاتح مصر ويسجلون له الفتح قبل وقوعه جزاء مقدما له . اما انا فقد كانت تعرض في خاطري رحلة (الجنرال كورباتكين) من بطرسبورج الى الشرق الاقصى في غضون الحرب الروسية - اليابانية مأمورا بالنصر والظفر وكنت اذكر غير مختار ما لقيه من الحفاوة حيثما مرت سوابقه .

رحل الجنرال كروباتكين هذه الرحلة تحف به الدعوات المتصاعدة وتحوم حوله آمال الملايين من النفوس ولكن نبا حد حسامه واسودت وجوه آماله فتخلى الجيش الروسي عن (موكدن) بعد حرب استمرت عشرة ايام وانجلى عن منشور يا كلها ولم يبق لسلطنة الروس رجاء في الشرق الاقصى بعد الحريق الذي سعرته مؤخرة جيشهم في موكدن ، ولوان الجنرال كورباتكين اعمل

---

(١) المهواة : مابين الجبلين ، والسحيق : البعيد والعميق

رأيه في آمال قومه وفي القوى اليابانية التي يقودها (المارشال اوياما) ونظر في الامر نظرة عسكري حاذق ، لاتخذه المقيم المقعد واضطرب اضطرابا شديداً ٠

ولا شيء ادمى لقلب المرء من سوآل الطيبين الطاهرين اياه والحاحهم عليه بان ينجز لهم عملا ليس في مقدوره انجازه٠ غير أن ملامح جمال باشا ومخايل وجهه لم تكن تدل عَلى شيء من هذا الاضطراب بل كان يُرى (ثالث الثلاثة في تركيا) متمكناً من نفسه متماسكا في عواطفه ، مسيطرا عَلَى ميوله ، مرددا فيمن حوله نظرات ساجية مستقرة كانها تنادي بان الآمال في محلها وانه حقيق بكل ماقيل من شعر وعُمل من حفاوة ٠

اما دمشق فقد اعدت افخم المواكب وازهاها : تلك المدينة التي استقر فيها ملك (ابناء حرب) و بلغت قمة العز في ايام آل مروان ، ايام امتد سلطان العرب فوصل الشرق بالغرب وخيم في بلاد تعد مائة الف الف من النفوس ٠ ولقد حاول (تيمورلنك) ان يطمس آثارها و يخفي معالمها فاطلق في ربوعها النار واعمل في اهلها السيف وغادرها قاعا صفصفاً في وسط بستان فسيح ومياه دافقة ، الا ان تاريخ دمشق الزاهر ومكانها الجغرافي الباهر ابقياها للعرب مركز عز خالد ومستقر ملك معنوي لم

تقويد تيمورلنك ولا غير الزمان على طي بهجتها واعفاء رسومها

وقد استقبلنا في دمشق استقبالا حافلا ليس فيه زيادة لمستزيد فازينت المدينة احتفاء بقدوم فاتح مصر وتراكض الالوف من الناس الى موقف القطار وفيهم رجال الدولة وقادة جندها وسادة البلاد وعلماؤها وخطباؤها وشعراؤها وقناصل الحكومات فيها وذبحت الاضاحي والقيت القصائد الغر التي هي اشبه شيء باحاديث المناجاة وانصرف الناس مبتهجين متحمسين وكان يوماً لانظير له ٠

ثم استقر معسكر الجيش في فندق (داماسكوس بالاس) وباشر عمله بمنتهى العزيمة والهمة ٠

وفي مساء ذلك اليوم اي في ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٣٣٠ برح دمشق ذكي باشا قائد الجيش الرابع السابق وسار به القطار ساكناً ساكتاً متطامناً[1] لم يشعر بخبره الا قليل من الناس ٠

---

(١) تطأمن واطمأن اليه : سكن اليه



٤ — التأهب لغزوة مصر

تعبئة الفيلق الثامن — نواقصه الكثيرة — فون كريس — مجاهل الصحراء — الحقيقة والخيال — النزاع بين كريس وفلكنهاين — ملاك البادية = القطرات والقوافل — تدابير المنزل — الحشد والتعبئة — التربص في الحدود.

رأينا ان الفيلق الثامن هو الذي كان يأخذ الاهبة لغزو مصر وقد زجى جيشا عَلَى حسب انظمة الحرب للسير الى القناة ويتألف هذا الجيش من ١٠ كتائب و٣ سرايا مدافع رشاشة و٧ بطاريات مدفعية فيها مدافع صحراء ومدافع جبلية و بطارية مدافع من طراز (او بوس) سريعة الطلق ولواء هجانة وكتيبة استحكام وامثال ذلك . وقد اختيرت هذه الكتائب من الفرق الـ ٢٣ والـ ٢٥ والـ ٢٧ وهي التى تؤلف الفيلق الثامن وبذلك بُدلت الأنظمة الاساسية ولم يكن قد اجتمع في الوية الفيلق الكتائب الثالثة من المشاة وقد استبدل الهجانة بالفرسان بسبب المياه والمعايش وارتدى الهجانة البسة العثمانيين القدماء من السراويل والجزم والاردية القصيرة وعقدوا عَلَى رؤوسهم

عمائم رمادية فوقها هلال ٠

وكانت التجريدة موءلفة من قلب وجناحين ، في القلب ٣٧١ ضابطا و١١١٤٦ جنديا و٨١١ حصانا و١٨ ذلولا و١٥٠ سائقا و١٤٤٤ بعيرا ٠ وفي الجناح الايمن ٣٣ ضابطا و١٣٨٦ جنديا و٥٥ حصانا و٩٥ سائقا و٤٣ بعيرا وفي الجناح الايسر ٣٢ ضابطا و١٣٨٦ جنديا و٨٨٧ حصانا و١٨ ذلولا و٢٠٧ من السائقين و١٥٣٤ بعيرا وهذا هو الفريق الاول وتليه الفرقة العاشرة وهي من خيرة الجند التركي ٠

ويكون في سوريا وفلسطين معسكر بقية الفيلق الثامن، والفيلق الثاني عشر الذي قدمها من الموصل بقيادة فخري باشا وتتم فرقتاه الـ ٣٥ والـ ٣٦ ما ينقصها في منازلها بجوار حلب وحماه ٠

لم يكن لدى التجريدة طيارات ولا برق لاسلكي وامثالها من العدد الفنية المستحدثة وقد أُمر القلب بالتوجه من بئر السبع الى الاسماعيلية وأُمر الجناح الايمن باتباع طريق (غزه - العريش - القنطره) وأُمر الجناح الايسر بالسير من قلعة النخل والسويس٠ ولم يتيسر لمعظم الجيش محاذاة الساحل بسبب قبض البريطانيين على زمام السيادة البحرية — ولم يكن له غير الامعان في قلب

الصحراء وقطع فلواتها بعد حفير الهوجة بدون طريق واضحة ولا خارطة منظمة ·

فعلى هذه الحملة ان تكون اول من يخوض تلك المجاهل باعبائها واثقالها مثل مدافع الصحراء والمدافع الثقيلة والجسور · وقد قضت عقباتها وشدائد الطبيعة فيها وفقدان وسائط النقل واستعاضتها بالابل والاقلال من هذه خشية الجوع والظمأ واشباه ذلك باغفال الاساليب العسكرية والقواعد الفنية واتخاذ طرائق جديدة تناسب طبيعة الزمان والمكان ·

لقد كانت هذه الحملة نسيجة وحدها وفريدة دهرها فوجب ان يكون نظام الطعام والشراب والنقل عَلَى حسبها لا عَلَى حسب المناهج التي تسلكها جميع الممالك المتمدنة في انظمتها واوضاعها العسكرية · فكأن تجارب العصور وعبر الايام وكل شيء من علم ومعرفة اضمحل فجأة امام نفحة من نفحات سيناء ! ولزم احياء خلق جديد من العدم ، ولعمر الحق لقد كان ذلك ··

ما اكثر المساعي التي بذلها (فون كريس بك) في سبيل معونة قائد الفيلق الثامن وتدارك ماتحتاج اليه الحملة ؟ كسرت رباعيته في بكور يوم وكان غاديا في سيارته عَلَى معسكر الفيلق فاصيبت سيارته ولم تثن عزيمته بل مضى في سبيل ماقصد

له واجل مداواة جرحه الدامي الى حين الراحة . وكان دوءو با بعيد الهمة لايستريح قلبه ولا يجف لبده[1] ولاتقف رجلاه ومامن يوم من ايام الصيف ولا ايام الشتــاء ذر[2] فيه قرن الشمس ولم يباشر اعماله .

لم يعرف له مثيل في شدة عزمه و بأسه وجرأته وطموحه واقناع مخاطبه والتأثير عليه تأثيرا بسحر قلبه ويختلب لبه ، والقدرة عَلَى الاختراع والابداع وغير ذلك من المناقب النادرة . ولم يكن ينقصه غير شيء واحد وهو صحة الرأي و بعد النظر . وكان الطبيعة وهبته كل شيء ليكون عسكر يا بارعا ثم عدلت عن ذلك عَلَى حين بغتة فحرمته العقل الراجح

وكنت أرى في اطواره وطباعه من رقة الحاشية ولين الجانب وكرم الاخلاق مالم اكن اراه في ضابط الماني غيره . وهو من ابناء اسرة عريقــة نبيلة في (باڤاريا) وقد انتخب من لجنة الاصلاح العسكري الالمانية وقلد ادارة مدرسه الرمي المختصة بمدافع الصحراء فابقى في قلوب ضباط المدفعية اعظم اثر يذكر له من معارفه العسكرية الواسعة وعلاوة عَلَى مااسلفناه فانه قاوم بعض

(١) في الاساس : ومن المجاز فلان لايجف لبده : اذا لم يزل يتردد
(٢) ذرت الشمس تذر ذرورا « بالضم » : طلعت

رؤسائه الذين كانوا يرمون الى الاتيان بعدد مدفعية جديدة المانية ورد عليهم قائلا : « ان في الجيش العثماني ، ايكفيه من السلاح وحسبهم ان يحسنوا استعماله ، ولا تسمح الخزينة العثمانية بالاسراف في اشتراء اسلحة جديدة »

تبين لنا ان كريس بك كان عَلَى جانب عظيم من مكارم الاخلاق و شرف الطباع وقد نقل من مدرسة الرمي الى رئاسة دائرة الجيش في وزارة الحربية ، ولما كانت المدة التي أنفقت في سبيل اصلاح الجيش بين الحرب البلقانية والحرب العامة غير مجزئة لاعداد الجيش اعدادا كافيا ، لزم تدارك بعض اشياء عَلَى جناح السرعة فكان كريس بك في هذه الايام العصيبة روح الحركة والنشاط

وقد روى عنه فتى من اركان الحرب انه قال لما أعلن النفير العام : الآن تم كل شيء . وقد وقع عليه اختيار وزارة الحربية ليذهب و يتكلم باسمها في مجلس الوزراء و يقيم البراهين عَلَى وجوب اعلان النفير العام منذ ابتدأت الحرب الاوربية

وتولى كريس بك الذي ظهر هذا المظهر الجليل ادارة شعبة الاعمال الحربية في المعسكر العام . فالخطة التي سار عليها الجيش العثماني من صنعه ووضعه

ولو القي على ضابط من اركان الحرب سؤال فرض فيه نشوب حرب عامة = قبل ان نشبت = وسئل عن الخطة التي ينبغي على الجيش العثماني ان يقف عندها وجاء جوابه موافقا لما رسمه فون كريس ، لكان نصيبه السقوط حتما . فقد سارت فرقة بغداد الـ ١٢ التي هي من الفيلق الثالث عشر الى وان مشياً على الاقدام وتوجهت فرقة الموصل الـ ١٣ الى حلب ثم الى حماه ، وبرح الفليق السادس حلب الى الآستانة وذهب الفيلق العاشر من سيواس الى صامسون ليهدد بالنزول في اوده سا

وعلى هذه الخطة سحب الجيش من العراق وحرم جيش ارزروم من قاعدته المكينة في سيواس ، وهلكت الفرقة الثالثة عشرة في سيواس لانها لم تألف اقليمها . ولكن اعيد بعد ذلك قسم من الفيلق الثاني عشر الى العراق وسيق الفيلق العاشر الى ارزروم وارسلت الفرقة الـ ٨ والـ ١٠ من الآستانة وازمير الى سوريا بدلا من الفيلق السادس الذي جرد من حلب وارسل الى الآستانة ، وهذه الخطة القويمة التي يوحي بها العقل ويأمر باتباعها بادي الرأي لم تنفذ الا والبلاء محدق في البلاد ، غير ان المعسكر العام لم يزل يرى في الخطة السابقة اثرا نفيسا من الصناعة البديعة والمعرفة الدقيقة .

و بعد ان اتم الجيش تعبئته وتزجيته ارسلت (ادارة الاعمال الحربية) الى سوريا لتبلغ من الاقدار ما هو اعلى رتبة واسمى منزلة ! و بقي كريس بك في سوريا يتقلب في المناصب الرفيعة والمراتب الشريفة فاشترك في حملة القناة و كان له منها نصيب وافر بصفته رئيس اركان حرب الفيلق الثامن ، ثم ولي قيادة الصحراء و بعدها رئاسة اركان الحرب في الجيش الرابع ثم جهزت تجريدة ثانية على القناة اكثر عدة وعددا من التجريدة الاولى ووضعت تحت قيادته وله منزلة قائد فيلق واختصاصه ، ثم عين قائدا للفيلق الثاني والعشرين في حدود سيناء ثم رقي الى قيادة هذه الساحة ووُلي بعدها قيادة الفيلق الثامن .

فاصبحت تلك الفلاة مجالا واسعا لفنون كريس يستنفد فيها قوى الترك التي لاتنفد — على رأيه — فيجوب قفارها وينفض اجوازها ، وكأنه مشكاة من نور قدر لها من الإزل ان تضيء في صحراء التيه !

وفي كل هذه الاعمال كان كريس بك (او كريس باشا) جامعا لاشرف الخصال واحسن المزايا العسكرية والشخصية ولم يحرم الا من رجاحة العقل . وما في الدنيا عسكري بذل مثلما بذل كريس من التفاني ومن العزيمة والهمة في سبيل فكرة يقدسها

ويعتقد بصحتها ·

وقد اتخذ (الابن) مستقرا له في اثناء قيادته الصحراء وهو مكان في جوف سيناء دارس الاطلال طامس المعالم اطلق عليه لقب الابن لاماء فيه ولا مرعى ولا ثمار ولا يحتوي من الاجسام الحية عَلَى غير الاساود[1] والعقارب و بقايا الحيوانات البائدة · ومضى قائد الصحراء يكافح شدائد الطبيعة واعاصير[2] البادية التي كانت تنافس الطيارات في اعاقة النقل واقامة العقبات في تلك المفاوز

فهل كان من الحكمة وحسن التدبير ياترى مقاومة تلك الشدائد ومغالبة تلك المصاعب لاجل القناة ؟ وهل يأذن العلم والفن ببذل تلك الجهود ؟ لاسيما وقد انشأ البريطانيون سلاسل من المعاقل المنيعة في شرقي القناة عَلَى احدث نظام عسكري وأتم اسلوب بلغتها المدارك البشرية · وهل كان في وجوه الرجاء ان تغلب تجريدة عسكرية عَلَى هذه المعاقل ؟

ولا ينكر ان البريطانيين نحروا قوى كبيرة وانفقوا اموالا كثيرة ووجدوا حيالهم قلاقل مستمرة في حدود مصر واذا امسكنا عن القول بما في علمنا من الصواب والخطأ - وليس هذا الامساك

(١) جمع اسود : وهو العظيم من الحيات
(٢) جمع إعصار : وهي ريح تثير الغبار فيرتفع الى السماء كأنه عمود

بالامر اليسير - لرأيناه عملا جليلا بعيد الاثر ، شريف الذكر ، رفيع المنزلة ، زاهر التاريخ وهو ولا ريب فيه من اعظم المساعي التي صدمت فيها قدرة البشر وطاقتهم شدائد الطبيعة واهوالها ونازلتها منازلة الاقران للاقران ٠

ففي سنتين مهدت السبل التي تمتد الى جوار القناة واستنبطت الينابيع واحتفرت الاقنية وانشئت الحياض وبنيت السدود ومدت المسالك الحديدية وغرست الجنائن وشيدت المباني والمستشفيات والانابير وقد عُبد من الطرق في غضون الحرب ما يبلغ طوله ١٠٠٠ كيلو متر في سوريا وفلسطين وسيناء و٥٠٠ كيلو متر من خطوط السكك الحديدية ٠

وليس كريس بك وحده هو الذي اتى بذلك كله بل ان هذا الرجل الذي لم يكن يرضى ان يسطع في التيه كوكب بجانب كوكبه لم يكن يستحسن القيام بكل تلك الاعمال الواسعة ولكن اليس كريس بك هو اول من اثار هذه الفكرة في نفوس الترك وساقهم الى سيناء ؟ ، الا اننا جميعا اقتفينا آثاره ووقفنا عندما رسم لنا

وهنا يجدر بي ذكر قول « الطان » :

« لقد جاء الترك في سيناء بعمل عظيم » ، ولكن ماذا تغني

معالجة الامور المستحيلة ومحاولة تذليلها ؟

اول ما يجب السعي اليه في الاعمال العسكرية والسياسة هو ابتغاء النجح والتمييز بين الحقيقة والخيال ، والممكن والمستحيل تمييزا لايعترضه الشك ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وما فائدة المساعى التي تبذل والفكرة التي تعمل والجهود التي تسخر اذا لم يكن العمل في اساسه مستندا عَلَى الحقائق والممكنات ؟ واذا كان العمل مستحيلا افلا تكون مضاعفة العزائم والاتعاب والاضاحي سببا في زيادة الخسران ؟

عَلَى انه عقدت بنودنا بالظفر في معركتين نشبتا في سيناء وكان كريس قائد هذه الساحة ولقد كان من الممكن ان ينقلبا الى هزيمة بسبب عناده ، ولو تم ذلك لاضعنا سوريا من زمن بعيد

ولما تقلد الجنرال « فلكنهاين » القيادة العامة في ساحة سوريا وفلسطين كان بينه وبين كريس حالة اشبه بالبراز ، فلم يكن يصغي (كريس) الى فلكنهاين الذي يفوقه علما وتجربة ومقدرة ويتقدم عليه تقدما بعيدا لانه يرى نفسه الاخصائي الفرد في شؤون البادية فيضطر فلكنهاين الى مجاراته والتنازل له عن آرائه في بعض الاحيان وقد ادى تنازع الرجلين الالمانيين الى انسحاب الفيلق العثماني الذي كان مرابطا في بئر السبع ، وقال

لي قائد هذا الفيلق قبل ذلك في حديث له ينم عن شعوره بقرب حلول النازلة : انني ارى فون كريس شوءما عَلَى بلادنا ·

اما اعمال الفيلق الثامن التى تعد من الخوارق فهي تُجمل بما يلي:

١ — ملاك البادية : واساس هذا الملاك حذف اعباء الجيش الثقيلة وتخفيض اثقال الضباط الى خمسة كيلو لاجل كل واحد وتقليل عدد الدواب التى تحتاج الى شبع وري بقدر ما يستطاع واخراج الذين هم عالة عَلَى الجيش مّن غير المحاربين كموظفي الحساب والخدم والحواشي واشباههم ولم يستبق من هذا النمط غير الائمة ·

ولما لم يكن لدى الجيش خيام ومضارب كان عليهم ان يناموا في الفضاء وقد اعطي كل طابور مضربا او مضربين لاجل المرضى ·

هذا هو ملاك البادية الذي خلقت اجزاؤه خلقا جديدا وارتكنت عليه حملة مصر · وكان عَلَى حسبه معسكر الفيلق مؤلفا من ١٨ ضابطا و٢٢ جنديا و١٥ حصانا و ١٨ ذلولا و٧ اباعر وكان طابور المشاة مؤلفا من ٢٢ ضابطا و٨٩٥ جنديا و٦ احصنة و٢٢ بعيرا وكانت سرية بلوك الرشاش تحوي ٤ ضباط

و٩٣ جنديا وحصانا واحدا و٢٨ سائقا و٧ اباعر . والبطاريــة السريعة تتألف من ثلاثة ضباط و١٤٢ جنديا و١٠٨ من الاحصنة

٢ — الجراية : يتناول كل فرد في اليوم ٦٠٠ غرام بقسماط و١٥٠ غرام تمر و ٩ غرامات شاي

٣ — انظمة القطارات والقوافل : أُلفت خمس كتائب هجانة لاجل نقل الارزاق والمياه . فالكتيبة الاولى وهي ٢٥ زمرة تحمل ماء والكتيبة الثانية كذلك وهي تتألف من ٢٥ زمرة فيها وفاء الخمسين . وكانت الكتيبة الثالثة تحمل موءونة وهي تتألف من ١٠ زمر ، وهذه الكتائب الثلاثة تابعة للقلب :

واما الرابعة والخامسة فقد كانتا تحملان ماء وموءونة وكل واحدة منهما تتألف من ١٠ زمر خصصت لاحد الجناحين .

وكان في كل زمرة من زمر الموءونة ١٢٨ بعيرا تحمل جراية يوم للقلب . وفي كل زمرة من زمر الماء ٩٢ بعيرا وعلى كل خمسة منها ان تحمل ماء يوم للقلب . وعلى كل زمرة مختلطة ان تكفي جناحها طعام يوم واحد وشرابه فيخرج من ذلك ان زمر الاباعر تحمل طعام عشرة ايام وشرابها فقط ماعدا الذي يحمله كل فرد من ماء وغذاء

وقد وضعت تعاليم مسهبة فيما يتعلق بقطارات الارزاق

والمياه وعدد اباعرها ومقدار حمولتها :

فيحمل بموجبها كل بعير من ٨٥ بعيراً في كل زمرة مؤونة كيسي شعير و كيس بقسماط وزق ماء فيكون مجموع ماتحمله كل زمرة مؤونة ١٧٠ كيس شعير و ١٥٦ كيس بقسماط و ٢٢ كيس تمر ، وعلاوة عَلَى ذلك ففي كل زمرة ٦ اباعر يحمل كل منها ٢٠٠ كيلو ماء سدا لحاجتها في عشرة ايام و ٧ اباعر يحمل كل منها كيس شعير و كيس تمر وتنكة شاي

اما زمر الماء فقد كان على كل بعيران يحمل ١٨٠ كيلو ماء وتختلف اوعية المياه وعددها بالنظر الى سعتها

وقد كان عَلَى كل زمرة ماء ان تحمل لمن فيها من الاباعر والجنود ما فيه سداد حاجتهم لمدة عشرة ايام . وقد الف في القلب ثمانية زمر لاجل ذخيرة البطاريات الثقيلة وزمرتان لاجل بطاريات الصحراء الخفيفة وواحدة لاجل المشاة ولكل مدفع من مدافع (اوبوس) ٦٠٠ قنبلة ، وتتألف كل زمرة ذخيرة من ٨٧ بعيرا ويحمل كل بعير اربعة قنابل للمدافع الكبيرة او ١٦ لمدافع الصحراء او ٥٢ للمدافع الجبلية او ٤ صناديق للمشاة

٤ = نظام السير : = الزمان

ينهض الجند في الساعة الرابعة صباحا وتقوم المقدمة في الساعة

ا ٣٠ ، ٥ و يسير سواد الجيش في الساعة ٦ وتكون الاستراحة الاولى من الساعة السابعة الى ال ٢٠ ، ٧ وتكون استراحة بعد الظهر من الثانية عشر الى ال ٣٠ ، ١ و يخيمون من الساعة الثانية الى الرابعة و يتلقون الاوامر في الساعة الخامسة .

وتحل اربعة ازرار امامية من السترة اثناء المسير ويتسامح مع الجند في المشي و يعظهم الائمة والضباط و يبينون لهم ان الظفر في تقدمهم والموت في التأخر ، اما الذي يترك كتيبته من غير ان يؤذن له فانه يرمى لساعته . وأمرت كتائب المشاة باسعاف المدفعية حين الحاجة الى المعونة في تسيير المدفعية . ويتراوح الافراد بينهم حمل البندقيات

وكنا نمتطي الليل ونسكن في النهار لان برد الليل القارس يحول دون الرقاد ومن منافع هذه الطريقة تقليل الحاجة الى الماء

٥ = تدابير المنزل : قرر قبل قيام الحملة ان يدخر في بئر السبع وحفير العوجة ما يكفي لأمين حاجة القلب مدة شهرين وحاجة الجناحين ٢٨ يوما وقرر ان تحمل هذه المؤن قوافل الفيلق الثامن والفرقة العاشرة من (سيله) التي هي آخر موقف القطار و يبتدىء بالادخار من اول كانون الاول

وامر القلب بالمشي الى الاسماعيلية باعتبار كل ثلاثين كيلومترا

(منزلا) فيكون بين بئر السبع و بين الاسماعيلية ١٠ (منازل) سميت بما يناسبها

٦ — خطة الحشد : تبدأ التجريدة بمغادرة دمشق في اول كانون الثاني سنة ١٣٣٠ ، وتبرحها الساقة في الـ ١٩ من الشهر المذكور ، وتزحف المقدمة من بئر السبع نحو القناة في ٢١ منه ·

٧ — خطة التعبئة : كان على الفيلق الثامن ان يتوجه الى القناة و يهاجمها بعد الانتهاء من احتشاده ، وتليه الفرقة العاشرة بعضها اثر بعض عَلَى قدر ما تسمح المؤونة والماء ووسائل النقل

عَلَى ان الهجوم بالقوى الضعيفة مملوء بالاخطار ولكن ليس من المتيسر ان تزحف الكتائب الجسيمة في صحراء سيناء وكلما زاد عددها زادت المصاعب واذا امكن الفريق الاول ان يجتاز القناة فانه يعسكر غربيها و ينتظر الفريق الثاني ·

ثم انه لم يعول في الخطة عَلَى الفتح عنوة بعد التفوق في النار بل عول عَلَى قاعدة المباغتة التي تغتنم في الليالي الدامسة ، واذا لم يبزح المقاتلة بئر السبع في ٢١ كانون الثاني فان هجوم القناة يؤجل شهراً آخر · ولا تسمح الحالة السياسية بالبطء لما يخشى من اثره السيء في نفوس العرب ·

ومن طبائع الانسان ان تستفزه عاطفة التنافس والتحاسد

عند ما يشاهد اعمالا كهذه وليس من المستطاع ان يعركها بجنبه[1] و يجعلها تحت قدمه ، كما انه ليس من الممكن الاستغناء عن الذين قاموا بتدبير تلك المعجزات وارضاء هوى النفوس ..

واذا اردنا ان نلخص الحالة الروحية في الجيش والفيلق رأينا رئيس اركان الجيش اقدم من « كريس » واكبر سنا وهو من بروسيا . واما كريس فقد كان من (بافاريا) وهو انضر شبابا واشد طموحا واذكى فوآدا وكان قائد الجيش «ديكتاتوراً» وقائد الفيلق شجاعا جريئاً فتمت المشاكلة بين كل اثنين من هوءلاء الاربعة والفوز لا محالة من نصيب الموصوفين بالجرأة والذكاء والطموح وكان الجيش يظهر بمظهر القابض عَلَى زمام الامر والحقيقة ان الفيلق استمر بصدق عزيمته وقوة ارادته متغلباً على رغائب الجيش وخططه الى ساعة الهجوم .

وما كادت تحل قيادة الجيش في دمشق حتى طالعت خطط الفيلق عَلَى عجل فرأت ان هجوم الفريق الاول الذي يصل القناة عمل يستوجب الشكر والثناء لما فيه من درك النتائج السريعة الا انه محفوف بالاخطار ولذلك ينبغي التريث الى ان تتمكن الفرقة العاشرة وفرقة الحجاز والمتطوعة من

(١) عرك الشيء بجنبه : احتمله

الاشتراك في الهجوم وقد طلبت من الاستانة ان تجد الحملة وتزيد في قوتها ومكنتها فتمدها بفرقتين تركيتين وكتائب استحكام ورشاشات قوية وطيارات ومدافع صحراء ، ولم يأت من ذلك غير الفرقة الثامنة ومدافع قديمة ذات عيار ١٢ سنتمترا

ثم ان قائد الجيش الذي انيط به الهجوم على مصر والدفاع عن سوريا وجد ان العمل الاول مقدم عَلَى الثاني فوجب ان يتولى قيادته بنفسه ويكل امر سوريا الى رجل يختاره ويرجع اليه في امره ، ولذلك احدثت الانظمة الآتية :

تتألف المقدمة من الفيلق الثامن وترجع هي والفرقة العاشرة وتجريدة الحجاز الى الجيش الرابع . اما الفيلق الثامن عشر وبقية الفيلق الثامن فانهما يرجعان الى فخري باشا بصفته وكيل قائد الجيش ، اما قيادة فلسطين واوضاع المنزل فيها وفي سوريا فانهما تتبعان سلطة القائد العام مباشرة .

وقد تحتم ان تقسم سوريا الى مناطق عسكرية مختلفة يرجع قادتها الى وكيل القائد العام كي يستقر فيها الامن وتدفع عنها الغوائل الداخلية والخارجية .

وقد صادفت هذه الخطة هوى من نفس القائد العام ومطابقة لروح القصد واصبح عليه ان يقود بنفسه حملة مصر وان

يفوض هجوم القناة الى الفيلق الثامن و يقلده تبعته و بذلك لايكون النفوذ والسلطة في سوريا وفلسطين في قبضة واحدة يمكن ان تسمو الحوادث بصاحبها ولكنهما وزعا عَلَى ثلاثة في سيناء وهم : قائد الفيلق الثامن (جمال باشا) وقائد الفرقة العاشرة (فون ترومر) وقائد تجريدة الحجاز وهيب بك (باشا) . واما في سوريا فقد وزعا في دمشق عَلَى فخري باشا وكاظم بك (باشا) . مفتش منزل الجيش وفي القدس عَلَى مفتش المنطقة « باك باشا » ومفتش منزل القدس قائم المقام روشن بك .

ولم يكن لواحد من هؤلاء السبعة سلطة عَلَى الثاني ولكن كانوا جميعهم في قبضة القائد العام وحده .

ولما جاء المعسكر الى دمشق كان عدد الابل قليلا جدا فكان ينقص الفيلق الثامن ٤ آلاف بعير وكانت الفرقة العاشرة تحتاج الى ٢٥٠٠ بعير لاجل طعام عشرة ايام وشراب يوم واحد حسب القاعدة المتبعة في الصحراء . ومن هنا يتبين ان من اعظم المساعي التي ينبغي ان يبذلها الجيش هو تدارك الاباعر وقد امكن الحصول عَلَى ١٠٥١٤ بعيرا بين ٥ كانون الاول سنة ٣٣٠ و٢٢ كانون الثاني من السنة نفسها — باعتبار آذار اول السنة .

اما خطة حشد الفيلق الثامن فهي ان يأخذ بمغادرة الشام في ١ كانون الثاني ويؤلف مقر الفرقة المقدمة ويذهب معهم مفتي الشافعية في المدينة المنورة السيد ابو بكر حاملا اللواء الشريف الذي جاء به ٠

ولا انسى ما حييت حماسة ذلك اليوم في دمشق وقد ذهبت لمشاهدة المعسكر المحمول عَلَى الاباعر في مسيره بين المحطة والثكنة ، فشاهدت كل من فيه من ضباط وجنود هائجين مائجين تحرك اعطافهم نشوة السرور وهزة الفرح والشوق كما تحرك النسمات نواعم الاغصان ، ولم يبق مكان لم تؤثر فيه تلك العوامل اثرها ٠ وكأن لم يبق انسان لم تحدثه نفسه بالنفر معنا والمضي الى القتال في صفوفنا ، ولقد تمكنت هذه العواطف من النفوس وبلغت منها خير ما تبلغه فبكى فريق من شجوه وحنينه ٠

قام الفيلق بعد ايام الى القدس وكانت الفرقة الاولى وفرقة الحجاز بحاجة الى استجماع العدة وجمع الاطراف وليس من الحكمة كلها التعويل عَلَى عبور القناة بغتة ولم يكن بد من العمل عَلَى اجتيازها عنوة مما يستلزم بقاء الحملة امام القناة مدة اسابيع : ولهذا أُمر بانشاء منازل في البيداء تحميها السرايا

التي يثها الفيلق وامر باستنباط المياه لمعونة المنازل وتأسيس المستودعات في وسط هذه البيداء وادخار الارزاق ، ودعي ايضا الفيلق الى التربص في الحدود الى ان تجتمع الفرقة العاشرة

لقد اثر هذا الامر في الفيلق اسوء اثر وهاج غضبه لانه اخذ الاهبة منذ اشهر ليتوجه الى القناة في ٢١ كانون الثاني . والخطة السابقة تقضي بتبديل كل شيء وكان الجيش يرغب ان يكون وراء الفيلق فاذا نزل خطب سئل الفيلق عنه واذا تيسر نجح استأثر الجيش به وادعاه لنفسه

رد الفيلق عَلى تلك الخطة وبين انه من المستحيل انفاذها لان التربص في الحدود يسبب انفاق ما جمع من المؤونة بكل جهد وعناء وفي كل يوم يهلك جزوء من الاباعر واذا استمر عَلى ذلك مدة طويلة لم يبق لديهم ما يكفيهم .

ولما جاء هذا الرد ذهب رئيس اركان حرب الجيش الى القدس محاولة اقناع قائد الفيلق ، ثم عاد الى الشام عودة الظافر في ١٤ كانون الثاني فلقيته في المحطة وسألته عن نتيجة مسعاه فاجابني بكل خيلاء جواب البالغ من الامر مراده . عَلى انه في حقيقة الامر لم يحظ من الغلبة بشيء لان قائد الفيلق لم يرض بحال من الاحوال الا ان يرجئ قيامه عشرة ايام وكان ميعاد

قيامه من بئر السبع في ٢١ كانون الثاني فأمهل عشرة . وعَلَى هذا يكون الجيش قد نزل عَلَى رأيه

وفي هذه المدة المضروبة تصل مقدمة الفرقة العاشرة الى بئر السبع ، ولا تبرح تجريدة الحجاز معان . ويصح للفيلق ان يرى أن متابعة الجيش له واذعانه لحكمه فدية جليلة في سبيل غرض سام شريف لانه قصر مساعيه شهورا عَلَى التأهب والاستعداد ، فاذا بدل الآن كل شيء جرح قلب الفيلق وخمدت جذوة حماسته واختلاف القائدين الكبيرين سيء الاثر في الغاية المقصودة والحالة المعنوية .

عَلَى ان الحملة تبلغ مع الفرقة العاشرة وتجريدة الحجاز خمسة وثلاثين الفا وابقاء هذه القوة امام القناة امدا طويلا يحتاج الى استعداد وتأهب لا حد لهما بل ان معنى انتظارهما العدول عن غزوة القناة ومتى انقضى فصل الشتاء لم يعد يتيسر القيام بعمل ما وخسائر الابل المتوالية تستوجب شراء اخرى وازدياد تناقصها في البلاد ، ولذلك فان لقائد الفيلق الحق بمحاولة اجتياز القناه بغتة مسلما للمقادير لا مهاجمة عَلَى قاعدة نظامية مأمونة .

وهذا الاسلوب من المحاكمة يمحو الاثر الذي يحدثه تعرف قيادة الفيلق الثامن رجحان ارادتها .

٥ — الحجاز

موقف الحجاز قبل الحرب — الثورة في اليمن
اشتراك الشريف في اخماد الثورة — اختلافه
مع شفيق باشا — وهيب بك — اشتراك
الامارة في تجريدة مصر — معاهدة الامير
مع بريطانيا — خطط الاتراك — حرب
سنة الـ ٩٣ — تأثير اشتراك الحجاز في الحرب
تجريدة الحجاز ·

لا اظن تركيا ينظر الى هذا العنوان ولا يلتعج فوآده وترتمض جوانحه ومع ذلك فاني لاار يد ان ابحث ههنا بحثاً طو يلا في شأن الحجاز واسباب ثورته

واذا نظرنا الى اراء الترك العامة وجدنا مسألة الحجاز التي هي من اوجع حوادث الحرب واشدها ايلاماً جديرة بأن يفردلها مجلد بأمره · وسأوجز الكلام فيها بمقدار المناسبة التي بينها و بين هجوم القناة الاول فأقول :

لما خاض الترك غمار الحرب كان موقف الحجاز كما يأتي :

لم تكن الصلات بين امير مكة و بين والي الحجاز وقائدها (وهيب بك) عَلَى حالة يُرغب في مثلها وكذلك الامر بينه و بين الحكومة المركزية وهي نتيجة سبق وهم توالى حدوثه ففي سنة

١٣٢٦ ، ايام الانتقاض الكبير في (عسير) واليمن، كان الامام يحيي يحاصر (صنعاء) وكان السيد الادريسي يحاصر (ابها) حاضرة عسير وقد احتل جميع المراكز العسكرية بين ابها والساحل ، ولم يعهد مثال لهذا العصيان الرائع فقد كان كل عصيان سبق يقتصر علَى قيام الزيدية سكان الجبل ، ولكن نزول السيد الادريسي الى المعركة في هذه الكرة برهن علَى انه خصم اشد مراسا من الامام يحيي وهو شافعي المذهب وقد هدد نفوذ امير مكة فلم يكن يرضى عنه بل يصر علَى مناوأته

قدر (عزت باشا) قائد الحملة اليمانية هذا الموقف حق قدره واراد ان يجر الى جانبه قوة امير مكة لينقذ (ابها) فقابل الشريف حسينا في ثغر جده ونتج من هذه المقابلة ان حضرة الامير اقر الاشتراك بقوته في حملة عسير وان يأخذ علَى عاتقه قيادة الحملة العثمانية التي جهزت لعسير حتى تسير الامور سيراً سجحا[1] في قبضة واحدة

فحارب الامير الادريسي حروبا طويلة انتهت بفوزه ودخوله ابها ظافراً وقد ابلى قائدها ومتصرفها سليمان شفيق باشا بلاء حسناً في الدفاع عنها ، ولم يمض اسبوع علَى دخول امير مكة

(١) سجحا «بفتح السين والجيم» : اي سهلا مستقيما

ابها وفكه الحصار عنها حتى فسد مابينه و بين شفيق باشا

ولا ريب في ان هذا الخلاف الذي شجر بين المتقذ والمستنقذ جدير بانعام النظر فكان سليمان باشا يرى ان امير مكة لم يرم في تجريدته الى اعلاء كلمة الدولة العثمانية بل رمى الى اغتنام الفرصة السانحة من جراء عصيان الادريسي و بسط سلطانه في ارجاء عسير وتمكينه له باتخاذ القوى العثمانية ظهيرة لمقاومة الحكومة العثمانية نفسها ، وقد رأى المتصرف انه لامناص من سلوك الخطة السالفة بصفة كونه ممثل الحكومة هنالك بعد ان شاهد من اعمال الامير ما كشف له عن نيته ، وكان فيه مقنع له فوصفه بانه ادريسي مجهز بالبنادق والمدافع الا ان هذا المنهاج الذي وقف عنده سليمان شفيق باشا لم يقع موقع الرضى من المعسكر العام واستدل به عَلَى نقصان كياستهِ السياسية وسوء تدبيره

و بعد ان تتابع الولاة عَلَى مكة المكرمة انتدب لها الزعيم اركان الحرب وهيب بك بصفة قائد للحجاز ووال عليها فساءت الحال بينه و بين الامير في ايام قلائل وزين لحكومة الآستانة توجيه حملة اليه مؤيدا دعواه ببعض الحوادث والاعمال فاجابته الحكومة الى طلبه ولكن محمود باشا الشركصولي حملها عَلَى العدول ، غير ان هذه الفكرة وحدها كافية لاثارة امير مكة واذكاء نار غضبه .

ذلك هو الموقف في الحجاز لما نشبت الحرب العامة

ولما وافينا دمشق وردت علينا برقية من وهيب بك يسأل فيها عما يؤمر به لان فرقة الحجاز اصبحت بمقتضى الاوامر الاخيرة الصادرة من وكيل القائد العام مرتبطة بالجيش الرابع ومأمورة بمجاراته ومتابعته في خططه ٠

وجاء من امير مكة في هذه الغضون ان الامارة تعاهد عَلَى الدفاع عن الحجاز وتضمن ذلك فلا بأس من اشتراك الفرقة مع تجريدة مصر ، بل ان الامارة الجليلة حاضرة لامداد الفرقة ونجدتها ٠

فتحتم ان يضع الجيش خطة فاصلة صريحة في هذا الشأن فقلبت وجوه المسألة ونظرت اليها من ابوابها فرأيت انه مهما كانت النيات والرغائب التي تعزى الى امير مكة علينا ان نتناساها ونتناسى معها كل خلاف وان يشد بعضنا ازر بعض بعد ان اعلنت الحرب واعلن معها الجهاد المقدس ٠ واكبر عمل في هذا اليوم هو ان تشترك امارة مكة وفرقة الحجاز في تجريدة مصر ، واذا كان الامير يعمل عَلَى اشعال الثورة ، واذا كان قد اتفق مع البريطانيين فليست فرقة الحجاز بمكان من القوة والمنعة يجعلها كافية لمغالبة الطوارئ ، واشتراكها في تجريدة مصر خير من بقائها في الحجاز

وكذلك فاذا انتقضت هذه الخطة لا يمكن ان تضمن مؤونة الفرقة فيها سواء من البر ام من البحر وهنالك تكون النازلة لا محالة ولذلك يجب الاسراع بانفاذها بحجة تجريدة مصر . على انه يرجى ان تكون رغبة امير مكة بمشاركة الحملة ناشئة عن نية حسنة وان تعفى اثار البرودة القديمة بما يعامل به من الحرمة والثقة فمن الحكمة واصالة الرأي ان نتمسك بهذه القواعد ونحسن معاملته ونجل رأيه ونوجه انظار موظفي الحجاز الى مثل ذلك

فاستحسنت هذه الاراء وقرر ان لا يبقى في الحجاز الا لواء ضعيف وان يبرح قائد الفرقة مكة للاحتشاد في معان والاشتراك في تجريدة مصر وقد ابلغ الامير انهم يتشرفون بتفويض قيادة التجريدة اليه فاجاب ان الافضل عنده ان لا يبرح مكة ليدافع عن الخطة الحجازية اذا اعتدى عليها الخصوم ، وسير نجله عليا وفريقا من المجاهدين ينضمون الى فرقة الحجاز في تجريدة مصر .

وفي ١٥ كانون الاول غادرت فرقة الحجاز مكة وفيها لواءآن من المشاة و بطاريتان جبليتان وفوجان رشاشان وفصيلة صحية والفا جندي والمجاهدون بقيادة الامير علي .

وقد احتشدت هذه القوى بعد اسبوعين في المدينة المنورة والتحق بها كتيبتان كانتا لدى المحافظ الا ان الامير عليا فضل

البقاء في المدينة للدفاع عنها، فاجيب سؤله ولم يجدوا اي فائدة في اكراهه عَلَى العدول عن فكرته او الامساك عن سفر فرقة الحجاز ، ولو جرى شيء من ذلك لعجل بايقـاد النار ولذلك اكتفي بما اورده من العلل في هذا الموضوع · وضرب وهيب بك في الشمال و بدأت فرقة الحجاز تحتشد في معان في اول كانون الثاني وتم احتشادها في ٨ منه وتخلف الامير على في المدينة مع المجاهدين الذين معه

ومضت الحكومة العثمانية والامارة الجليلة في براز سياسي من ذلك الحين الى ان اعلنت الثورة وكانت الامارة الجليلة تأتي غالبة في جميع ادواره ·

وما خروج الفرقة من مكة وبقاء الامير علي في المدينة الا اثران من خطة مرسومة دبرت من قبل وتكللت صحيفتها الاولى بالنجاح فثبتت الامارة وطأتها في مكة والمدينة وصفا لها الجو في الحجاز ودانت لها الامور ·

ويفهم مما روته صحف اوربا في الآونة الاخيرة انه بعد ان قررت الحكومة العثمانية دخول الحرب في صف الدول الوسطى ، عقد شريف مكة مع بريطانيا معاهدة باسم العرب تقضي ان يحارب الشريف الاتراك في جانب البريطانيين ولم

نكن مطلعين عَلَى هذه المعاهدة يوم عقدها وما ذا كنا نستطيع صنعه لو اطلعنا عليها ؟ . فلم يكن يسعنا غير تجاهلها ، وان كان سير الامور ومجرى الحوادث يدلان عَلَى وجود شيء من ذلك . وقد هجم الاعراب عَلَى بحارة « امدن » الالمانية في توجههم من (ايث) الى جده وبعد ان قاتلوهم يومين تراجعوا عنهم بامر موظفين ارسلتهم الامارة الجليلة فكأن الايدي التي هيأت هذه الحادثة ارخت عليها السدول عند مشيئتها

وقد اعترض بعضهم قائلين فيما بعد : لو بقيت فرقة الحجاز في الحجاز لما شبت نار الثورة وقد اسلفنا الكلام عَلَى ان الفرقة ليست من المنعة بحيث تتمكن من عمل كهذا ولا ازال مصراً على رأيي بان سحب فرقة الحجاز من الحجاز عمل موافق لفن التعبئة بل اني ازيد عَلَى ذلك قائلا انه كان ينبغي سحب جميع القوى العسكرية ليس من الحجاز فقط بل من اليمن وعسير وجمعها في الآستانة او سورية وكان فيلقان مبعثران في هذه الانحاء وهما اقل من ان يدفعا عنها خطر عدو اجنبي واكثر من ان يُستغنى عنهما في ميادين حرب اعظم منها .

ولما كان مستقبل الدولة العثمانية معقودا عَلَى ما تنتجه الحرب العامة فمن الحكمة وسداد الرأي ان نجمع قوانا في الميادين التي

تحرز بها النتائج الحاسمة ولم يكن في مقدور الجيش العثماني ان يقاتل في كل ربوع المملكة الفسيحة قتالا مقرونا بالظفر ، واذا فزنا في الحرب العامة تيسر لنا ان نسترد اليمن والحجاز وعسير فيما لو اضعناها ، واذا كنا من الخاسرين في الحرب فاي فائدة لنا من الاحتفاظ باليمن والحجاز وعسير ؟

وما اكثر وجوه المطابقة بين الخطط التي اتبعها قدماء العثمانيين وشيوخهم في الحرب الروسية سنة ١٢٩٣ — ٩٤ وبين بعض الخطط التي وضعها شبان الاتراك في الحرب العامة سنة ١٣٣٠ — ٣٤ التي قادوا فيها المعارك وخاضوا الوقائع على احدث قواعد التعبئة العسكرية .

ففي سنة ١٢٩٣ كان مجهزا للقتال نحو مليون مقاتل الا ان الميدان الذي ينقضي فيه الامر ويبرم وهو ساحل الدانوب لم يكن على طوله الا نحو ١٨٠٠٠٠ من المقاتلة وقد اهملت قوى جسيمة بحجة المحافظة على الامن الداخلي وامثالها من الحجج في البوسنة والهرسك وكريد ويانيا وطرابلس الغرب وادرنة واستانبول ومكدونيا و بلاد العرب . وكان الجيش العثماني لما استمر القتال في الحرب العامة موزعا مثل هذا التوزيع تحت كل كوكب فكان من ذلك تبديد قواه والاسراف فيها او تفريق

شمل جموعه وفك عراها في سبيل منافع كثيرة اللبس والشبهات من حيث تزجية[1] الجيش لحملة القناة وهجوم القفقاس وتجمير[2] الجند في اليمن والحجاز وعسير ٠

ومن جملة الاعتراضات التي وجهت قولهم لماذا لم يؤخذ على يد الشريف في الايام المساعفة ؟ الم يكن من الهين الرجوع الى احدى الوسائل التي طالما رجع اليها اجدادنا وتوسل بها عصابة الاتحاديين في عصرنا ؟ اولم يكن بذلك حقن دماء كثيرة ؟ وهذا الاعتراض لايخرج عن اعتراضات العامة وآرائهم ! اذ كيف ينكر اخلاص امير لبى اشارة الخليفة الاولى قبل سنين واسرع لانجاد معقل سلطاني حصره العصاة ؟ وما اقبح تلك الوسائل واسوأها ولا سيما ايام نودي بالجهاد المقدس ! واي امير عربي يثق بكلام الترك وعهودهم بعد ذلك ؟ والوفاء من شيم العرب التي لايؤثر فيهم شيء مثلها ولا يقع من قلوبهم موقعها ونقض الذمام يقدح في جوانحهم نارا من الحقد لا تخبو ابد الدهر ٠ واذا اغفلنا كل ما تقدم من العلل والاسباب ، فهل مثل ذلك العمل يحول دون انتقاض الحجاز دائما ابدا ؟

---

(١) زجيت الشيء تزجية : اذا دفعته برفق

(٢) تجمير الجنود ٠ ان تحبسهم في ارض العدو ولا تقفلهم من الثغر

واني اعتقد اعتقادا لايخالطه شك ان شخصية الشريف واولاده طبعت على هذه الثورة بصورة واضحة كل الوضوح وان مظالم جمال باشا ومغارمه عجلت في ايقاد الفتنة واولت الشريف حسينا حجة ظاهرية بينة لامراء بها امام العالم الاسلامي والعربي تبرر انتقاضه ولكن اسباب ثورة الحجاز عندي ترجع الى امور اخفى ودقائق ابعد غورا ، ويأتي في مقدمة هذه الاسباب موقف الحجاز الجغرافي وتليه مرامي العرب القومية . فما للأشخاص بين هذه الاسباب الضرورية الطبيعية الا منزلة ثانية .

فالبلاد الحجازية المقفرة تعيش من الحجاج والحجاج يأتون عن طريق البحر ، والسكة الحجازية لا تكفي لنقل ما يعيش به الحجاز وما يلزم للدفاع عن سوريا وفلسطين في آن واحد ومتى حصرت الحجاز فان المجاعة الشديدة واقعة بها لا محالة . ولا يمكن ان تشبه باليمن وعسير تلك البقاع الخصبة الخضرة التي يمكن لاهلها ان يجدوا موارد عيشهم من غير ان يبالوا بالحصار الذي يضرب عليها .

فيتبين مما تقدم ان دخول تركيا الحرب في صف الدول الوسطى ومحاصرة الحلفاء اياها لايمكنان الدولة العثمانية من اسعاف الحجاز بالقوت والغذاء من طرق البر فليس للعربان

الذين تعضهم المجاعة بانيابها الا ان يمدوا بصرهم الى السفن التي تجوب البحار مشحونــة باكياس الدقيق والارز فتســتهويهم خيالاتها الخلابة وتضطرهم الى التسليم كما تسلم القلعة التي تنفد مواردها ولما لم يكن في وسع الاعراب اشتراء تلك الارزاق فلا بد لهم من الاذعان للشروط التي تعرض عليهم ولا يمكن لجهاد مقدس ينادى به في الآستانة ان يكون له تأثير معنوي يكفي للشفاء من داء المسغبة[1] والحاجة الشديدة وليس لامير في مكة كائنا من كان ان يصد الاعراب البــداة الجفاة عن القيام بعمل كهذا ·

وهذه البراهين جلية ليس وراءها مقال لقائل فنحن نتساءل لماذا اغفلهـا (الثلاثة) لمــا جردوا السيف ولم يمعنوا النظر فيها وهي على ما هي عليه من البساطة والوضوح ؟ لاجرم ان السبب يرجع الى نقص معارفهم الجغرافية ·

ومع ذلك فلا ينبغي التغالي بتقدير المعونة العسكريــة التي قدمتها هذه الثورة الى جيوش بريطانيا من حيث التعبئة وتزجية الجيش ، فان المرشال « اللنبي » هو الذي كسر في فلسطين الجيش العثماني واقتصرت قوة الثائرين في اطراف معاز

(١) المسغبة : المجاعة

عَلَى مقاتلة قوة امكنها الدفاع ببسالة عن ٨٠٠ كيلو متر من سكة الحجاز نحو سنتين متواليتين . وهذه القوة تعد بضعة آلاف من البندقيات اذا استثينا حامية المدينة . ولكن لثائري الحجاز في ميدان فلسطين تأثيراً آخر غير مباشر باكراههم الترك عَلَى حبس وسائل نقل كثيرة في السكة الحجازية لاجل محافظة المدينة المنورة والسكة الحجازية نفسها . ووسائل النقل محدودة في هذه السكة فكان من ذلك ضرر بالغ حده في مواصلات فلسطين . واصبحت الفرق العسكرية التي تؤمها مضطرة ان تمشي عَلَى اقدامها مئات الكيلومترات فتصيبها الخسائر الكبيرة قبل ان تدخل صف القتال وكأنما دخلته لانها قادمة من ساحات حرب اخرى استنفدت قواها .

فمن الواضح ان نقل الارزاق والمهمات الى ساحل فلسطين اصبحت تعترضه عقبات شديدة بسبب المواصلات مع الحجاز ، والنتائج التى ادركها الثائرون في هذا الشأن هي موضع خطأ المعسكر التركي العام اكثر مما هي موضع مجد وفخار له لانه لم يبرح مثابراً عَلَى الدفاع عن سكة الحجاز . ومن الخطأ الفني الذي لايغسل عاره والبساطة العقلية التى ليس لها حد الاصرار عَلَى ركوب متن العناد في عدم الاستفادة من الخط

الضيق الوحيد الذي يمكن الاستفادة منه في الدفاع عن فلسطين البعيدة عن قاعدة الاعمال العسكرية الوف الكيلومترات في الوقت الذي مد البريطانيون سكة حديدية كاملة للهجوم على فلسطين غير مكتفين بالسيادة البحرية التي هي في قبضتهم ·

ويمكن اسناد هذا الخطأ الفاضح الى الميول الدينية التركية التي لم تأذن على الاطلاق باخلاء الحجاز ولذلك كانت الخطة التي اتبعت خطة تعبئة دينية لا تعبئة فنية عسكرية · والتعبئة التي تعتمد على العقل والحساب لا تستطيع تحمل السياسة والعواطف واذا تحملتها واصغت لها انتقمت منها شر انتقام

*

* *

كانت كتائب فرقة الحجاز المحتشدة في معان تعزز بصفوة من جنود الترك لانها ضعيفة وقد انضم الى هذه الفرقة سرية متطوعة الدروز التي استنفرها الامير شكيب ارسلان وتولى قيادتها وسرية خيالة الاكراد التي جمعها عبد الرحمن بك اليوسف وسرية المتطوعة من مسلمي البلغار وسرية المتطوعة ايضا من خيالة الشركس

وسميت القوة التي الفت على هذه القاعدة بتجريدة الحجاز فسارت الى قلعة النخل وكان يراد ان تتجه الى السويس

وتتقدم الى القناة وتلتحق بالتجريدة العامة ولم يكن من المتيسر تدارك الاباعر لان التجريدة العامة نفسها كانت تجد عقبات كؤودة في هذا السبيل ·

وكانت قيادة الجيش ترجو ان تأتي تجريدة الحجاز ومعها ما يكفيها من الاباعر فساء فألها وخابت آمالها لما رأتها مقبلة وليس لديها من وسائط النقل الا الهين اليسير ·

وسيأتي معنا ان تجريدة الحجاز لم تصل الى القناة للاسباب السالفة ، وقد تأخرت عن الفيلق الثامن وحمل تاخرها قائد البريطانيين عَلَى الظن بان مهاجمة الاسماعيلية لاتكون قبل الانتهاء من تزجية الجيش وتعبئته بامره فلم يحسب حساب الهجوم في الوقت الذي قام به وكان في ذلك نوع مظاهرة عسكرية مفيدة



٦ — من دمشق الى بيت المقدس

مغادرة دمشق — القدس — صفحة من تاريخها القديم — ابراهيم وموسي — استقبال القائد العام — تقسيم المعسكر ٠

برح معسكر الجيش دمشق بعد حفاوة واكرام تفوقان حد الوصف وسار بنا القطار الى محطة « سباستيا » وهي تأتي بعد محطة « سيله » التي كان ينتهي بها قطار العساكر ولم يكن الخط بينهما كافيا لتسيير الجنود وقد تم انشاؤه منذ عهد قريب وذهبنا من سباستياالى القدس في السيارات والسماء تجود بوابل مدرار ولما صرنا الى القدس وهي المرة الاولى التى قدمتها كنت غارقا في بحار التأمل مسترسلا في تذكر تاريخ هذه المدينة الذي يرجع في قدسيته الى مولد التاريخ ويختفي في سطور ايامه المتقادمة ٠ تذكرت ابراهيم ويعقوب وموسى الذي دعا قومه الى ارض الميعاد ولم يتيسر له رؤية ذلك اليوم ، وتذكرت سليمان الذي بلغ الاسرائيليون في ايامه اقصى مراتب الجاه والاقبال

وتذكرت بعد ذلك فتوحات الآشور بين والفرس وجلاء اليهود وسبيهم واعمال السيف فيهم ، وحكومة الرومان ومناقب

السيد المسيح والقائد « تيتوس » السفاك الذي ضبط القدس واحرقها واعمل السيف في رقاب اهلها ، وتذكرت عمر ابن الخطاب الذي جاء القدس من الحجاز ممتطيا بعيره ففتحت له ابوابها ، وتذكرت حروب الصليبيين وصلاح الدين الايوبي مثال الوفاء ٠

اوفينا على القدس بين الخيالات السانحة والغيوث المنهمرة وهي المدينة الصخرية اليابسة المقفرة الاطراف التى ليس فيها للشاربين غير ما يجمع من مياه السماء ولم يكن لها من المحاسن ما يستوقف الانظار سوى ان المعتقدات التي تأصلت في اعماق التاريخ جعلت لها في كل نفس منزلة لاتداني وخبأتها في ملاءة من الطلاسم تسحر العيون وتستهوي القلوب ، فسورها الرفيع المحكم الشرفات كأنه المخرم والمفوف[1] وحجارة المسجد الاقصى اعظم مساجد المسلمين تتلو علينا فصولا جيدة من التاريخ الاسلامي وتعيد الينا ذكراها ٠ وقد كتب علَى قطعة من الدمقس الاحمر بالطراز الابيض قوله تعالى »

« ادخلوا مصر ان شاء الله امنين »

يالها من كلمة مررنا من تحتها وتحدرت الينا منها ذكرى

---

(١) مفوف كمعظم : رقيق اوفيه خطوط بيض

حوادث مرت قبل خمسة او ستة آلاف من السنين فافعمت قلوبنا عواطف دينية . وكانت تقدمتنا سيارة القائد العام فلم تحضر الاستقبال ولم نشاهد غير تواليه وهواديه[1] كما تشاهد معالم زينة بعد مضي يومها . ونزل المعسكر في الفندق الاكبر ولم نلتق بالميلق الثامن لانه سافر من قبل الى انحاء بئر السبع

مكثنا في القدس ولم يكن تهيأ لمعسكر الجيش ان يذهب باسره الى الصحراء بسبب ما يعترضه من الحوائل في النقل والمعيشة ولم يكن قد ابقي له غير قليل من الاباعر ولذلك قسم المعسكر الى ثلاثة اقسام نخلف في القدس القسم الثالث المؤلف من قيادة المعسكر والاوراق وادارة البريد ومستشار العدلية وامثال ذلك من ارباب الاعمال الكتابية وقرر ان تقوم المقدمة في ٤ شباط وهي القسم الاول وتؤلف من القائد ورئيس اركان الحرب وثلاثة من ضباط اركان الحرب واثنين من المرافقين وثلاثة من ضباط الاوامر وثلاثة من الضباط الملحقين وواحد من جماعة الفرسان و٢٠ هجانا . ويقوم بعد اسبوع الفريق الثاني من المعسكر وهو مؤلف من رئاسة الصحية ورئاسة البيطرة وادارة البرق وغير ذلك .

(١) التوالي الاعجاز ومن الظعن اواخرها واقبلت هوادي الخيل اذا بدت اعناقها

٧ — صحراء التيه

الاسرائيليون وموسى — صحراء سيناء والغزاة المصاعب التي لقتها التجريدة العثمانية فيها — خطة وصل الهند بافريقيا من البر — اقليم سيناء تقسيمها وحدودها — الزوابع فيها — قلة الماء وندورة المطر ٠

يختفي تاريخ الصحراء في ظلمات القرون الاولى ويذكر بأن ابراهيم اختار تضحية ابنه في مكان بئر السبع وفيه التقى سليمان بيلقيس وفرشت ارضه بالذهب ٠

كانت تمر القوافل بصحراء التيه فى طريقها الى مصروفلسطين وقد باع اخوة يوسف اخاهم من احدى هذه القوافل ولما أشتدت السنون في فلسطين واستوزر عزيز مصر يوسف استدعى ابويه واخوته فانزلهم بين « القاهرة » و « بورسعيد » وقدم الاسرائيليون الى الفراعنة اموالهم ثم مواشيهم ثم دخلوا في رقهم لاجل ان يتناولوا من الغداء المدخر ما يكفيهم وقد تكاثروا بعد وفاة يوسف كل التكاثر و بذل الفراعنة قصارى مجهوداتهم ليحولوا دون تكاثر شعب غريب في بلادهم ٠

عاش الاسرائيليون في ذلة الاسر الى ان قيض الله موسى

فكان له الفخر والفضل بانقاذهم واحداث امر عظيم من اجل الامور التي عرفها التاريخ · وقد خرجوا من مصر عَلَى الروايات الاسرائيلية بعد ان مكثوا فيها نحو مايتين وخمس عشرة من السنين وهم زهاء ستمائة الف · وكان طريق بحر الروم اقصر الطرق الى فلسطين ·

ولعل موسى الحكيم رأى ان هذا الشعب الذي الف المذلة والاسر قد يفضل الرجوع الى مصر عَلَى مناصبة الفلسطينيين القتال فقاده الى الجنوب الشرقي اي الى منتهى البحر الاحمر من جهة الشمال حيث مدينة السويس اليوم · ويغلب انه عبر من هذا المكان في اثناء الجزر ،واوفى على طور سيناء في ستة اسابيع فاعترضهم العماليق القاطنون بين بئر السبع وبحر لوط ولكن الاسرائيليين هزموهم بما لهم من الفضل في العدد واتقان اصول الدفاع وهذه هي المرة الاولى التي انشأ فيها موسى اسس الاوضاع الاجتماعية والعسكرية فقسم امته الى عشرات ومئات والوف وولى علَى كل فرقة نقيبا وغادر طور سيناء بعد ايام ومضى الى جنوبي بحر لوط · ولما استقر بالمكان الذي قصد له بث اثنى عشر عينا من الاسباط الاسرائيلية الاثنى عشرة في فلسطين فعاد العيون بعد اربعين يوما يتحدثون

ببركة ارض الكنعانيين وخصبها وشدة مراس اهلها فجبن قوم موسى عن الهجوم وعوقبوا على ذلك بان يتيهوا اربعين سنة في الصحراء فعادوا اليها ومكثوا فيها ثماني عشرة سنة ·

كان موسى في اثناء هذه المدة يغالب اليأس والفتور ويقمع كل انتقاض بنجم قرنه الى ان تغلب بعلو همته وصلابة عزمه على كل تلك العقاب وكان جل ما يرمي اليه ان يبعث في الاسرائيليين جيلاً جديدا ويستولي على ارض الكنعانيين ويرد قومه الى اوطانهم على ان الذين قدموا من مصر كانوا كثيري العدد الا ان فيهم الجبناء والمعتلين والشيوخ والضعفاء فلا يتيسر على الاطلاق ان يؤلف جيش فاتح من جماعة كهذه ولم يكن بد من الاصطفاء فعوقبوا في الصحراء على مخالفتهم الاوامر الآلهية وصفوا وهذبوا واضمحلت الذرية التي خرجت من مصر في هذه السنين الثماني عشرة وذهبت شيئا فشيئا وقام مقامها جيل لم يألف ذل الاسر ولم ينزل منازل الهوان وحينئذ قر رأي موسى على مباشرة عمله والمضي في سبيل قصده مرة ثانية وضرب في طريقه الى الشمال فى وجهة بحر لوط ·

وفى اوائل السنة الاربعين من مغادرة الاسرائيليين مصر وقف جيشهم فى مكان لايبعد كثيرا عن موقفهم السابق وكان

عليهم ان يمروا بمملكة العيدوميين ليدخلوا ارض الكنعانيين وهي في جنوبي الخط الممتد بين غزة وبئر السبع وبحر لوط الا ان ملك العيدوميين لم يسمح لهم باجتياز بلاده فاختار موسى ان يذهب الى الجنوب ويمر بوادي عربة وهو بين خليج العقبة وبحر لوط ويذهب الى الشرق ويمر من وراء الشريعة بين اراضي بطرا والكرك ويتقدم الى الشمال ويدخل فلسطين من جهتها الشرقية · وقد نجح في انفاذ هذا الرأي الذي فضله عَلَى محاربة العيدوميين واجتياز بلادهم عنوة ·

مضت العصور المتعاقبة وصحراء سيناء مجاز الفاتحين بين الشرق والغرب فمر بها الآشوريون والفرس والاسكندر الكبير وغزاة مصر في زمن عمر الفاروق وقد حاول احد قادة هولاكو ان يخترقها في طريقه الى مصر فسقط قتيلا في معركة نشبت بينه وبين جيش المماليك الذي صمد له في وادي الشريعة وغزا المماليك سوريا غزوات عديدة · ولا بد لصاحب السلطان في مصر او في سوريا اذا اراد الاحتفاظ بسلطانه في احديهما ان تكون الثانية في قبضة ملكه وقد نشبت المعركة الاولى بين السلطان سليم والمماليك في جوار غزة وتوجه نابوليون من مصر الى سوريا وحاصر عكا وهو يبتغي ان يستولي عَلَى آسيا

و يسود الاسلام فيها ، وقد قطع ابراهيم باشا المصري صحراء سيناء وغزا سوريا والاناضول

وكانت كل هذه الجيوش ماعدا جيش موسى تمر بطريق غزة والعريش ومنه نقل تابوت الاسكندر الكبير المرصع الى الاسكندرية

اما السيادة البحرية فكانت في قبضة الانكليز لما غزا نابوليون وابراهيم باشا سوريا وكانت في يد العثمانيين لما غزا السلطان سليم مصر ولم تكن سيادة لاحد في بحر الروم في اثناء سائر التجهيزات العسكرية ٠

وقد انشئت قواعد بحرية في بيروت وصيدا وصور وكانت تقطع الاخشاب من غابات لبنان لانشاء السفن

ومما يستحق الذكر علاوة عَلَى ما تقدم ان قناة السويس لم تكن في سفر من الاسفار الماضية فبدل حفرها خطط تزجية الجيش كل التبديل وجعل اساس السيادة البحرية متوقفا عَلَى السيادة في مصر وقد امرت التجريدة العثمانية ان تضرب في جوف صحراء سينا وتخترقها فقامت بما امرت به وعالجت من المصاعب والمشاق ما لم يسبق له نظير في تاريخ الاسفار السالفة٠

فيظهر مما تقدم ان سيدنا موسى اتى من العناء الطويل

والعنت[١] الثقيل ما لم يلقه احد قبل خمسة آلاف سنة وانه لم يعهد مثال لتجريدة العثمانيين في اثناء الحرب العامة سواء من اقتحام العقبات والشدائد ام من بذل العزمات والهمم الخارقة

ولقد اراد العثمانيون غير مرة ان يعيدوا الكرة عَلَى القناة واتخذت سراياهم صحراء سيناء مجالا لها ومغدى ومراحا في سنتي الحرب الاولين وقر رأي البريطانيين في سنة ١٣٣٢ عَلَى اخماد هذه المساعي واحتلال فلسطين والامن عَلَى مصر من البر ·

او قل بعبارة افصح انهم بدأوا يطبقون الفصل الاخير من الخطة الجليلة التي تعزى الى (سيسيل رودس) وهي وصل الهند بافريقية الجنوبية من طريق البر ·

ولذلك رأوا ان يمدوا عَلَى طول ساحل سيناء خطا عريضا ويأتوا باقنية المياه

فلا جرم ان قرار بريطانيا بمد سكة حديد وجر الماء بالاقنية وهي صاحبة السلطان في البحر باسطولها وصاحبة السلطان في البر بجيشها من جملة البراهين التي تدل عَلَى مافي صحراء سيناء من المصاعب والاخطار وما يحتاج اليه كل من يحاول قطعها – وان كان بريطانيا نفسها – من المجهودات والمساعي التي لا حد لها كما

---

(١) العنت : الوقوع في امر شاق

تدل عَلَى ما امتازت به القيادة البريطانية العامة من فكرة الحذر والحيطة ٠

الاقاليم : لاجدال في ان صحراآء سيناء من اسوأ البقاع وشر المنازل في هذه الارض وهي غير آهلة بالسكان اذا استثنيت ربوع فيها او هي قليلة السكان ٠

تحدها فلسطين من الشمال ووادي عربه وخليج العقبة من الشرق ووادي السويس من الغرب وبحر القلزم من الجنوب وتنقسم هذه الصحراء باعتبار خط يمتد بين بئر السبع والاسماعيلية الى قسمين متفاوتين فالقسم الشمالي رملي والقسم الجنوبي صخري ويسمي الاول الصحراء الرملية والثاني الصحراء الصخرية ٠ وكثبان الرمل وجبالها في الصحراء الرمليه وهي تسير عَلَى الاطلاق من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ومعدل ارتفاعها ٥٠ متراً وقد تعلو على ذلك

ومثار الزوابع التى تكثر في سيناء من هذه الرمال التي تنتقل في بعض الاحيان وقد كتب السائح السويدي « سوين هدين » لما ساح فيها اثناء الحرب راكبا سيارة ان صادف كثيباً رمليا يمشي عَلَى مهل

اما ارض الصحراء الصخرية فنها قاسية باسرها ولا يعوق

السهل منها سير الحركات العسكرية ولكن تعوقه جبالها الكثيرة وقد اتبعت التجريدة العثمانية الطريق الفاصل بين الصحراء الرملية والصحراء الصخرية فكان طورا رملا لينا وطورا وعثا قاسيا

ولم يكن في سيناء نبات نام ولا ماء جار ولم يكن فيها غير الشوك والقتاد[1] وحسك السعدان الذي ترعاه الابل ويصلح لطبخ الشاي .

ويوازي القناة سد رملي في مسافة تختلف بين ٥ او ٢٠ كيلو متراً ويمتد من الشمال الى الجنوب ويختلف عرضه بين ٢٠ و ٤٠ كيلو مترا يعوق الحركات الحربية اشد تعويق

وقلما تمطر السماء وقد لا تقطر قطرة في بعض السنين واذا امطرت فانها تنهمر انهماراً فتملأ الوديان وتسيل القيعان وتأتي في الغالب بغتة وتيبس الاودية في ايام اخرى ولا تبقى الا صهاريج ماء .

وتكثر الرمال والزوابع وتشتد وطأتها فتغطي السبل ولا يرى المرء ما امامه عن بعد متر واحد ويدخل الغبار في كل مكان وتتعذر المحافظة على جلاء الاسلحة ونظافتها ولا يحول شيء دون امتلاء افواه البندقيات بالرمال التي تدخل الصناديق المقفلة

(١) القتاد كسحاب : شجر صلب له شوك كالابر

وفضلا عن زوابع الرمال فهنالك الاعصار ورياح السموم التى كثيراً ما تهب فتصيب الانسان والحيوان وتلفح الوجـوه وتنشر رائحة كرائحة الحريق

وترتفع درجة الحرارة في النهار الى الاربعين والخمسين وتنزل في الليل الى العشرة وتبلغ الصفر في الشتاء ٠

وما اعظم ضرر هذا الاختلاف واسوأ تأثيره في صحـة الابدان ولاسيما في الشتاء اذ يألف البدن حر النهار فيتأذى كثيرا من برد الليل ٠ اما ليالي الربيع والصيف فانها بليلة رطبة ٠ ويتساقط الندى بغزارة فيسبب الامراض المعوية وغيرهـا ٠ ثم ان رياح السموم وما تنشر من رائحتها التي تشابه رائحة الحريق قد تستمر ثلاثـة ايام وتكون الليالي قليلة الرطوبة او لا اثر فيها للرطوبة ، ويكون الفرق عظيما بين حر النهار وبرد الليل في غير هذه الايام كما قلنا آنفاً ٠

وصفوة القول ان صحراء سيناء جامعة لمساويء الاقاليم الحارة والاقاليم الباردة ٠ ويفتقر الذي يمر بها الى كسوة سكان خط الاستواء وكسوة سكان القطبين الشمالي والجنوبي ٠ ويبهر نور الشمس العيون كما يبهرها لمعان الرمال وينبغي صيانتها من الغبار والوهج بالنظارات المسدودة الاطراف

وبالجملة فان صحراء سيناء تضر بالعيون ضرراً عظيما ويحمل ناموسها امراض العيون السارية المستقرة في مصر وفلسطين ، والماء هو اندر الجواهر واوحدها في سيناء وماء اكثر الآبار ملح وقد يكون اجاجا . وتسبب البطائح[1] كثرة الناموس والذباب ولا يمكن التخلص من القمل في الصحراء و يقل اذا اشتد الحر ، ولكن تزداد البراغيث والناموس . وتوجد في سيناء حيات وعقارب واشباهها من الحشرات السامة

(١) جمع البطح : وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى

٨ — الى القناة

مغادرة القدس — السير المنظم في الصحراء — « الآن جد الجد ! » — الخلاصة — الخنير — وادي العريش الماء الماء ! — ضباط الاحتياط — الابن — الموقف الرهيب — الخبرتان — الجفجافة — حراسة الماء منشور قائد الجيش — كتيبة الخيل — الانوار الكشافة — نقل الجسور — السفن في القناة .

توجهنا من القدس الى بئر السبع بعد ان تناولنا في ٤ شباط سنة ١٣٣٠ آخر طعام غداء فاخر في « غراندوتل » . وكنا نخترق الجوادّ المزدانة بين صفوف الناس الواقفين لوداعنا حيث يمتزج الهتاف بالحان الموسيقي ونحن نغذ السير[1] يتنازعنا عامل الطرب وعامل الحذر ، وكان يعرض في خاطري ان الذي اشاهده ليس لنا وان العواقب غير مأمونة .

كان علَى مقر الجيش ان يتبع نظام الصحراء ويكون قدوة في هذا الشأن ولذلك لم يأخذ احدنا معه اكثر من ١٥ كيلو في حقيبة لاينفذ الماء الى جوفها وذلك علاوةً على ما نحمله معنا وتحمله خيولنا وقد سبقت الحيوانات الى بئر السبع من قبل .

(١) الاغذاذ في السير : الاسراع

خرجنا من القدس وسرنا بعدها بين الكروم والجنائن والمعابد والاديرة ، ثم اقتفينا طريقا كثير الاعوجاج في ارض صخرية وكان طريقنا مجلى تاريخ الانبياء باسرهم وديوان التاريخ المقدس الذى احتوته العصور . فمرت هذه المناظر والمشاهد كلها امامنا مدة مسير السيارات . فمن « بيت لحم » مولد سيدنا عيسى الى البركة التي انشأها سليمان ، الى خليل الرحمن مثوى سيدنا ابراهيم . وقد اخذت المشاهد تتبدل بعد خليل الرحمن وتستوحش شيئا فشيئا وظهرت لنا الارض اليابسة القاحلة التي تسمى « عيدوم » وهي خط الفصل بين الصحراء وفلسطين . ومضت بنا السيارة الى « بان » بين بئر السبع والظاهرية ، وكان يصحبني رأفت بك « رأفت باشا » وقد ابتدأ الظلام يمد رواقه . وكان يخفق لواء عثمانى في سماء بئر السبع وصادف شروق كوكب في جانب الهلال فراقنا هذا المنظر في السماء الزرقاء فوق الوادي الضيق القائم بين صخور « عيدوم » وجبالها الموحشة في طريق مصر . ثم اختفت هذه السانحة السماوية وراء المناظر الجبلية الرائعة التي اعترضت سبيلنا فبقينا وحدنا في الظلماء ، وكنت ارى ان للمصريين والكلدانيين الحق في ولعهم بعلم الفلك وشاهدنا مخيم كتيبة من العمال فسألناهم ان يعيرونا مصباحا

لنصلح السيارة، فأرسل لنا مصباح ومعه طعام طري ولم يكن الطريق بين بئر السبع والقدس موافقا لسير السيارات بل ان العجلات لم تكن تتجاوز خليل الرحمن . ولما كان نقل مدافع الصحراء امرا لا بد منه مُهد الطريق بين خليل الرحمن وبئر السبع . وكذلك فان الابل تأمن من الزلق اذا سارت في طريق ممهدة وهي حاملة المؤن والذخائر

وقد تناولنا الطعام باشتهاء ولذة ونحن نشاهد القمر الجانح الى الغروب آسفين عليه وكان يخيل الينا ان هذه الكتيبة من العمال سعيدة غنية بما لديها من الوسائل الكثيرة كالخيام والمياه والوقود والمآكل وهي خارجة عن منطقة الصحراء التي تبتدىء من بئر السبع . افلم يعرض يا ترى في خواطر رجال تلك الكتيبة ما ستصير اليه في الغد حالة ضباط اركان الحرب الذين خدموهم فيغتبطوا بما هم فيه ؟

وكان بيننا وبين بئر السبع مسافة ١٥ كيلو مترا وقد خيم الظلام وغاب القمر ولم نصل بئر السبع الا متأخرين لأننا سرنا سيرا بطيئاً كيلا نضيع معالم الطريق الظامسة الا قليلا في تلك الارض . وبئر السبع من اعمال القدس وفيها مسجد جميل ومبان مشيدة وسوق وهي تعد زهاء ١٠٠٠ نفس .

وفي صبيحة اليوم الثاني اخذ معسكر الجيش يسير سيرا منظما بعد ان قطع المرحلة الاخيرة من عالم المدنية والحضارة فمشى قائد الجيش والى جانبه رئيس اركان الحرب متباعدا عنه خطوة الى الشمال وامامه فارسان بمسافة مئة متر ووراءه مرافقان في مسافة ست خطوات ويأتي بعدهما امراء المعسكر وضباطه اثنين اثنين بمسافة خمس عشرة خطوة علَى حسب مراتبهم وسبقهم ويتلوهم فرسان المعسكر وسائر اوضاعه ٠

وبعد ان غادرنا بئر السبع جاء فشيعنا قائد الحدود « بهجت بك » الزعيم اركان الحرب ، فدنا الي وقال : « الآن بدأت الحقيقة تواجهنا » وكنت اتذكر هذه الكلمة كلما سنحت لها مناسبة ، وانها الكلمة بليغة في تصوير حالنا ٠

وقد وصلنا الى المنزل الاول في « الخلاصة » بعد ثلاث ساعَات وهنالك بئر مستنبط حديثا وخيام منصوبة وراية مركوزة ولوحة مكتوب عليها « منزل الخلاصه » وكان علينا ان نأكل ههنا ونستمر في مسيرنا الى حفير العوجة وعلينا ان نقطع مرحلتين في اليوم وتناولنا اول طعام من طعام البادية وهو بقسماط وزيتون وتمر ، ولم نصدق بسهولة ان بيننا و بين « غراندوتل » التى تناولنا فيها الغداء الشهي في مثل هذا الزمن

مسافة ٢٤ ساعه فقط ، فتبدت خيالات المدنية امامنا بسرعة فائقة ورأينا فى هذا المنزل مضرب قائد الجيش ممزقا وفي جانبه ضابط احتياط وكنا راعينا في القدس وفي بئر السبع نفسها منازل السبق والتقدم ولم نتساهل في تعيين المراتب ، وأبادت صحراء سيناء في لحظة واحدة كل هذه الرسوم والتقاليد .

وبعد ان انتهينا من طعام غير سائغ تجرعنا شربة من بئر خلاصة بدلا من القهوة ولم اتم قسمتي من البقسماط في طعام الغداء فاخذت اتمها عَلَى ظهر الحصان وقد برعت في آخر الامر بأكل البقسماط وكنت اكسره قبلا باسناني حتى كسرت احدى ثناياي ذات مرة ، ولما كسرت تذكرت قول صاحبي : الآن جد الجد ولم يكن لدينا طبيب اسنان يداويها لان ملاك الصحراء لايسمح بوجوده = اذ هو في الصحراء من النفائس والكماليات — غير اننا لانمكث في الصحراء زمنا طويلا وامامنا مصر ونحن في طريقنا اليها وكل شيء بها . . .

امسينا في الحفير وهي آخر مركز للعثمانيين قبل الحرب وكانت مركز ناحية ومركز سرية نظامية وفيها ثلاثة ابنية مشيدة ووراءها بقليل الخط الذي يفصل مصر عن تركيا وفيها ايضا منزل ومستشفى وانبار وذخيرة ومركز برق وماء عذب.

ولما اصبحنا قصدنا وادي العريش ، وتأتي بعد الحفير منازل ام شيخان ، الهلال ، الابن ، بئر حامه ، الخبرة الاولى ، الجفجافة ، الخبرة الثانية ، وتبعد كل واحدة عن الثانية ٣٠ كيلو متراً وقد قطعناها بالعدو السريع وخيمنا في وادي العريش بين ام شيخان والهلال وكانت خيالاتنا ترقص على الرمال في اثناء مسيرنا مهودين[1] او مسرعين.

واسترحنا في ام شيخان وفيها مركز برق وانبار وراية ولوحة ومنارة ومضرب وقائد منزل وموظف انبار وموظف اخبارولكن لم يكن فيها ماء ، وكان في خطة الصحراء ان تستحدث هذه المستحدثات في كل منزل وكأنها موجودة من القدم وكان في المنارات المشتعلة موضع سلوٍ للضباط والجنود وقطرات الاباعر التي قضي عليها ان تواصل السير بالسرى .

حللنا مساء في «وادي العريش »وكانت تقدمتنا التجريدة واخذت اخذ القناة وقد مهدت الارض الرملية في جواروادي العريش لاجل نقل الجسور والمدافع الكبيرة وانتفع منا الاشجار الشائكة في تمهيدها ، ولم يكن ليصدق ان خميسا عرمرما يستطيع ان يمر من هذا المكان . وكنا نشاهد هنالك الاباعر

(١) التهويد : المشو الرويد مثل الدبيب

الملقاة في حالة الاحتضار واستدللنا على مواضع الماء في العريش بما كان لدينا من الخرائط والعلائم فوصلناها وقد اعيانا التعب واجهدنا العناء ونزلنا عن خيولنا لنرفه عنها ·

اما الماء فلم نجد منه الا اليسير في قعر الصهريج مملوأ بالديدان ، وقد كان في الحفير ماء بئر فوقفنا على طرف الوادي ولم يجرأ احد منا على الشرب من هذا الماء القذر · وفي وادي العريش هلك قائد (هولاكو) ولم يكن في استطاعتي ان اتلهف على هولاكو ولا على قائده لاني كنت من الماء في شغل شاغل · وقد ذهب الى الماء الموافق صلاح الدين بك وبيده وعاء يحاول املاءه وهو من اشدنا عزما وابعدنا همة فلما رآه رئيس الصحة في الجيش نادى : ان الماء غير شروب فينبغي ان يغلى و يوضع في « اوعية الماء » ، فنظر صلاح الدين بك الى رئيس الصحة نظرة المتوكل الذى لايبالي وقال : فلنطبخ الشاي اولا · وهذه مقايسة بليغة بين الحقائق والنظريات فاكتفى الرئيس بهذا الجواب وقام بما عليه من الوظيفة الادبية ولم يكن يجهل استحالة انفاذ ما امر به ·

صفي ماء وادي العريش ووزع عند الصباح ولم يحتج احد الى السوءآل عنه فيما اذا كان قد غلي ام لا · ولما وقفنا بعد ايام على

منازل المياه المالحة اخذنا نفتش عن هذا الماء ولكن لانجده

كان الوادي يتضايق بين الجبال في المكان الذي كنا به وكان لهذه الجبال الوان مختلفة ولها ارض صخرية وكانت شمس الاصيل تسيل عَلى الصخور فتصبغها بالوان مختلفة ، و ابتدأ برد الليل القارس ورأيت قطارا من الاباعر يقترب منا بقيادة بدوي يحدو حداء لايفهمه غيره وغير ابله التي يسوقها الى الورود

وان في الابل وصاحبها عبرة لنا ، انهم يعالجون الامور معالجة فعلية وقد وردوا الماء الآسن بدون تردد اما نحن فقد كنا ننتظر معجزة من السماء كمعجزة موسى لما ضرب بعصاه الحجر فتفجرت اثنتا عشرة عينا

فانظر الى هذا الحادى كيف لم يستغرب ظهورنا في هذا المكان الموحش لانه من اناس الفوا رؤية الحوادث الفجائية وهم في بداوتهم يتجاهلون ظهور جيش من غير ان يأتيهم نبأ عنه وكانما كانت بيننا و بينهم معاقدة فلا يدخل احدنافي امر صاحبه ، ولعل ذلك الحادي جاء فسقى من مائنا بتأثير تلك المعاقدة المظنونة واقول من مائنا وهو في الحقيقة ماؤه الا انه جاءت بالامس قوة اكثر منه نفوذاً ومقدرة فبسطت سلطانها عَلى كل المياه التي تمتد بين بئر السبع والاسماعيلية . ومن ذلك الحين اصبح ماء وادي

العريش الراكد الآسن قاعدة منازل للجيش الزاحف

رقدنا في وادي العريش واستيقظنا مبكرين فسرنا الى الابن واسترحنا في الهلال وهو منزل يشابه ام شيخان في نضوب المياه وقد اكرم قائد المنزلة مثوانا ، ولعله رق لنا فاهدى الينا تمرا كنا نختار احسنه وأطيبه

قاد المنازل في صحراء سيناء شبان الامة الاذكياء من ضباط الاحتياط الذين غادروا بالامس قاعات الدرس ولم يبلغوا العشرين من عمرهم ، وكانت الحاجة الشديدة تدعو اليهم وما اكثر حاجات الجند الذين يمرون بهذه السبل فلا غرو اذا تهادوا في اعطاف الخيلاء والفخر وظهرت عزائمهم ومواهبهم في هذه الصحراء وهم لم يمارسوا اكثر من اسبوع او شهر او سنة وكأنهم قطعوا من مسافات الحياة اكثر مما قطعه اترابهم ·

فيا ايها الشباب القيم الذي هو رجاء الوطن وموضع آماله ! ان تفانيكم في صحراء سيناء يملأ قلوبنا فخرا وحزنا · ولقد كان ينبغي ان تكونوا اكثر نفعا وفائدة لهذا الوطن تتسابقون على ورد المنون في سبيله ·

وصلنا الى الابن في مساء السابع من شباط سنه ١٣٣٠ ومعظم قلب الجيش في (بئر حاممه) والفريق الاول في الخبرة الثانية

بقيادة الزعيم كمال بك ، وقد وافت بئر السبع مقدمة الفرقة العاشرة وما بقي منها قام عَلَى الاثر واما تجريدة الحجاز فلم تكن بدأت في مبارحة معان

وكان في الابن مفتش المنزل على رضا بك من اركان الحرب وهو منزل مهم وان لم يكن فيه ماء . وكان هنالك مستودع ارزاق ومستودع ذخيرة وخيام ومضارب وآخر مركز للبرق وغير ذلك فتناولنا طعام المساء في خيمة عربية عَلَى مائدة بسيطة ولم نبق تحت السماء ، وجاءنا البقسماط في ارقى اطواره ميللا في اطباق ، ووجدنا في قائمة الطعام بقسماطاً وحساء وز يتونا وتمراً وشايا ، وقد اجتهد الجند الذين قدموا لنا الطعام ان يجعلوا للمائدة منظرة لطيفة تشابه ما في دمشق والقدس على طريقة المناوبة ، وكانت رؤوسنا منحنية بين جدران خيمة ضيقة امام الشموع المضطربة ونحن نأكل بهدوء وسكينة ولم ينبس رئيس اركان حرب الجيش ببنت شفة بل ظل ساكنا ساكتا وكانه يقول في نفسه ان هذا السفر الذي لا فائدة ترجى منه ولا معنى له من عمل فون كريس فاذا فرضنا المحال ونجحنا فيه فله الفخر كله ، واذا لم تنجح فلرئيس اركان الحرب نصيبه من المسؤولية وليس لجميع هذه المتاعب المبرحة غير هذه النتيجة ، ولكن لا يجوز

ان يشعر ضباط الاتراك بما اجده في نفسي بل يجب التغرير بهم حتى يفعل الله مايشاء . وذلك ما تقضى بـه الوطنية على ضابـط المـاني .

هذا هو السر في صمت الرئيس غـير ان القـلوب تتشاهد ولرب صمت ابلغ من كلام

اخذت افكر في الموقف وامتلي خواطري تلك الحوادث التي مرت امامنا تباعا فاتسعت في عيني مسافة الخيال وعظمت في نفسي بيداء سيناء وتراءى لي حمل صنـاع الجسور من ادرنة وحشد قطرات الابل وتذكرت ما لقيناه في التشييع والاستقبال من الحفاوة والاكرام وممعناه من دوي التصفيق والهتاف فجـال خاطري جولته فيـ هذه الساحة التي لانظير لها والتي ترمي الى المأساة الكبرى في غزوة مصر .

و بقيت الحرب قائمة في نفسي بين الحقائق والاحلام الى يوم القنـاة الثـاني فطـوراً كانت تتغلب الحقائق وطورا كانت تتغلب الاحلام ، ولكنني – ولا بد من القول – كنت اميل الى التفاوءل والفضل لواقعة القناة في شفائي من هذه العله فقد بددت تلك الغيـاهـب باسرها وتوافقت والحقيقة وجها لوجه ، فيالك من يوم لم اشهد به تجريدة القناة التي ذهبت ضياعا فيـ

سبيل الاحلام الباطلة بل شهدت اضمحلال مملكة وافول نجمها فلن اكون من عباد الخيال ماحييت !

ولما بلغ معسكر الجيش الابن كان في حفير العوجة والداخل والابن الداخل ١٠٥ اطنان من البقسماط و ٢٤ طنا من التمر و٤ اطنان من الزيتون وهي تكفي جيشا مؤلفا من خمسة وعشرين الفا ٩ ايام وذلك ماعدا ارزاق الايام العشرة التي تحملها القطارات النقالة وما يحمله الجنود انفسهم ، ولم يكن هنالك شعير

بقينا في الابن اسبوعا تعاطينا فيه بعض الاعمال ، وقد أمكن تجريدة الحجاز ان تبرح معان متوجهة الى القناة بمدمساع خارقة للعادة وكنا يئسنا ان تبرح مكانها لكثرة ماكان يعترضها من العقبات الشديدة في تدارك الابل واتبعت هذه التجريدة طريق قلعة النخل وهي تقطع خمس عشرة مرحلة على الاقل حتى تصل القناة ولم يكن في هذه المسافة غذاء ولا ماء وقد اجتلبوا من الحجاز زمرة من حفار الآبار لتبحث عن مكان المياه وتستنبطها للتجريدة

وغادرت مقدمة الفرقة العاشرة بئر السبع في ٨ شباط وهي مؤلفة من لواء مشاة وكتيبة مدفعية ولم تكن انظمتها مشابهة لانظمة الفيلق الثامن ، وقد انشيء فيها لواء للاثقال يحمل طعام عشرة ايام وماء يوم واحد .

حظيت في الابن بالرقاد في مضرب علَى قطعـة من الاديم وكنا في سائر الاماكن ننام بين الرمال والتراب وتحت قبة السماء وقد تمكنت ايضا من ان اجد صندوقا اتخذته منضدة

وكان منزل الابن مقرا ثابتا وفيه اعتدلت معيشـة صحراء سيناء قليلا ، وتلك المنضدة وذلك الاديم من مظاهر تحسن الحال

قمنا من الابن في ١٣ شباط سنة ١٣٣٠ ووصلنا بئر حامه في ساعتين وهو داخل في منطقة منزل الابن . ولم تتجاوز الاسلاك البرقية الابن ، ولم يكن لدينا طيارة او برق لاسلكي وامثالها من الوسائط الحديثة ولم يبق غير الذلل لحمل البريد فغرقنا في اعماق المجاهل والمهامه [1] وبعد ان استرحنا قليلا في بئر حامه استأنفنا المسير الى الخبرة الاولى ولم نرقد الا ساعات قلائل وكان فيها بئر ماء في وسط الرمال المنعقدة اللينة .

نهضنا مغلسين [2] في اليوم الثاني ودرنا ساعات بين الرمال لاننا لم نهتد الى الطريق وقد طمس الاثر الذي اقتفته التجريدة وغاب في الظلماء . ولما انشق جانب الفجر وجدنا انفسنا في الخبرة الاولى وقد رسمنا دائرة في الظلماء حولها . وكثيرا مـا تقع هذه

---

(١) المهامه جمع مهمه : وهي المفازة البعيدة الاطراف

(٢) غلس : سار وقت الغلس وهو ظلمة اخر الليل

الحادثة الغريبة فى الصحراء اذا لم تنصب الاعلام وترفع المنـائر لهداية ابناء السبيل ٠

عَلَى اني كنت اقول في نفسي والحيـاء آخذ مني مأخذه : لن تكون هذه الحادثة موضع فخر لغزاة مصر ، فاذا ضللنا في الخبرة الاولى فكيف نخرج من العبء العـظيم الذي اخذنا انفسنـا بالنهوض به ٠

ولما انجلى الدجى ترسمنا اثر الابل فوصلنا الجفجافـة عند الظهر وبينها وبين الخبرة الاولى مسافة ٣٠ كيلومترا وهي ارض يابسة الاكناف مقشعرة الذرى لا ماء فيها ولا نبات ولا حيوان الا قليلا من القتاد ومستحاثات[1] الحيوانات البائدة ولم يكن فيها ناموسة ولا ذبابة فوق ذلك ، ولكن فيهـا منزل يسمى الجفجافة ولوحة منقوش عليها كلمة المنزل ويركز في جانب اللوحة في النهار راية وفي الليل مصباح ، ولم يكن من فائدة لهذه المنازل التى لا طعام فيها ولا شراب سوى انها تبين للجند الذين يصلونها انهم قطعوا مسافة ٣٠ كيلو مترا فيجلسون ويستريحون هنيهة من عناء السفر ويأتون عَلَى مافي حقائبهم من ماء وزيتون ٠

ثم غادرنا الجفجافة قاصدين الخبرة الثانية بعد ان استرحنا

(١) المستحاثة : بقايا الحيوان التي بنفدهاشيء من المواد الترابية فتصير كالحجارة

فيها نحو ساعتين وقد قطعنا ثمانين كيلو مترا في ٢٤ ساعة بعد الاين وبيننا وبين الخبرة الثانية ثلاثون كيلو مترا . وهذه شقة بعيدة قطعناها في سيرنا ولم يكن لدينا من الزمن ما يسمح لنا بالتريث وكانت الغاية تقتادنا وتجتذبنا وقد اصبح الفيلق الثامن في جوار القناة ولا يمكن انتظار تجريدة الحجاز لان الارزاق تنفد في المكث الى حين مجيئها .

ولذلك تحتم الاسراع بالهجوم عَلَى القناة ولم نلتق بمعسكر الفيلق الثامن لانه كان يحافظ عَلَى سبقه ايانا بمسافة مرحلتين وكأنه يعمل عَلَى تجنب لقائنا ، وكأنه يريد ان يبلغ القناة ويرتمي عليها قبل ان يبلغها معسكر الجيش الذي يرغب من صميم فؤاده الاشتراك بهذه الواقعة التاريخية

وهذا هو سر ذلك التهالك الخارق الذي يصح ان يشبه بالذين يتسابقون الى الهاوية .

اما الخبرة الثانية فهي بقعة من رمل انشئت فيها بعض المعاقل للتحصن بها اذا هجم العدو . وفي جوارها مكان يقال له الخراب وهنالك اطلال صهاريج عافية . فلمن هي ؟ ولأي مدنية متقادمة وحضارة دارسة ؟

ولماذا يقال لهذا المكان « الخبرة الثانية » ؟ اوليس من

أصطلح ترقيم هذه الامكنة بالأرقام؟ اذا لم يكن لها مسميات؟
وهل هنالك من الفائدة الاجابة على اسئلة كثيرة؟ وعما قريب
بعد قليل انا نحسب ان نتساءل عنها.

"وكان في الخبرة الثانية مجتمع مياه كانه بحيرة بقيت من
الامطار الشتوية وكانها اثر من آثار رحمة الله الصرفة التي
لاتتوقع ، وقد وقعت القوى المتوجهة الى الاسماعيلية على خزان
ماء في وسط البيداء تلك الحاجة الى قطرات الابل التي
تحمل المياه

لقد احسن الانكليز ظنهم بنا اذ قالوا اننا قصدنا هذا
المكان عن سابق علم ومعرفة بالماء الذي فيه على ان عثورنا به لم
يكن الا اثر الصدفة والاتفاق وخيف ان يكون الماء قليلا فيه
فحتم التقصد في انفاقه وصيانته من الاسراف فأمر بان يضرب
حوله نطاق من الحرس المدججين فلا يدنو احد اليه ولا تؤخذ
قطرة الا باذن رسمي وقد تولى هذا العمل القائد سعد الله بك
من اركان الحرب « وهو احد مندوبي الترك الذين
عقدوا الهدنة » .

جرت السقاية على اساس منظم وقاعدة لاتختلف عن
قاعدة الصيارفة في انفاق الدراهم بمقدار او قاعدة الجراية في

توزيع المآكل والعدة في الذخائر، ولما شروط فيما يستوعبه الوعاء واشباه ذلك

ولم يؤذن لغير الخيول بورود ذلك الماء، اما الابل فقد ذيدت عن الورود كل يوم . وهي التي تواصل دأبها ولا تذوق طعم الراحة ولما تصل اطراف الماء تمد برقابها منظلمة اليه ولا تبل غليلها بقطرة والماء محمول على ظهرها تطوي المراحل والمنازل من غير ان يكون لها حق بوشلة[1] منه فما اقسى الانسان وما اوحشه !

ولما كنا نجد في معسكر الخبرة امر رئيس اركان الحرب انلا يغسل احد يده غير القائد العام ولا يتعجب من هذا الامر بل يعد زائداً لان الضرورة تقضي بكل شيء ولا يجوز الاسراف في الماء المخصص لاربع وعشرين ساعة

بلغ معسكر الجيش الخبرة الثانية في ١٥ شباط سنة ٣٣٠ فاصبح الموقف كما يلي :

الفيلق الثامن في جوار القناة ومقدمة الفرقة العاشرة في الخبرة الاولى ومقدمة تجريدة الحجاز تكون في قلعة النخل بعد ثلاثة ايام .

(١) الوشل : الماء القليل

وقد نشب خلاف جديد بين الجيش والفيلق في الخبرة الثانية فكان الجيش يرى تأخير الهجوم حتى تصل تجريدة الحجاز ووصى بذلك الفيلق فاستشاط غضبا واجاب ان هجوم القناة لايكون حسب الملاحظات العسكرية وحدها بل لا بد من ملاحظة حاجة الجيش الى المآء ولا يوجد امامنا منزل مآء يعول عليه فنزل الجيش عَلَى حكم الفيلق مرة ثانية

وحقا انه ليس في مقدورنا تأجيل الهجوم الى اليوم الذي نريده لان المعسكر مفتقر الى المآء والزاد ولا تكفي قطرات الاباعر لنقل ما نحتاج اليه ٠

امـا العودة الى الوراء فحديث خارج عن الموضوع مطلقا ولقد كانت حال التجريدة العثمانية هنـا اسوأ من حال الجيش العربي الذي عبر به قائده مضيق جبل الطارق واحرق السفن لان بئر السبع الذي هو اقرب المنازل الينا يبعد ثلاثمائة كيلومتر وصحراء سيناء اشد خطراً من مضيق جبل الطارق والتدبير الوحيد هو الارتماء عَلَى القناة ولم يبق الا ان تشعل نار الحماسة في قلب كل فرد من افراد الجيش و يلقي في روعه اقصى ما في العزائم والعقائد من يقين وهمة كيلا يألو جهدا من مجهوداته المادية والمعنوية ولذلك اذاع قائد الجيش بيانا عاما وصف فيه

الموقف وصفا صحيحا وذكر ان الارزاق والمياه والنجاة والظفر في العدوة[1] الثانية من القناة وان اسر الشهدآء من الضباط تعطى مرتبات وديات ويشرى لاولاد الشهداء من الجند مزارع وقرى متى تم فتح مصر وامر كل رئيس ان يقتل مرؤوسه متى احجم وتثاقل

قصدنا قصد القناة بعد ان روحنا عن انفسنا ومكثنا يوما في الخبرة الثانية وكان هنالك هضبة تسمى كتيبة الخيل تحتشد فيها التجريدة وتعد عدتها وهي وجهتنا المقصودة في مسير ذلك اليوم ، ولما توارت الشمس في حجابها وفرغنا من العشاء مضينا في سبيل قصدنا متوقعين في كل لحظة ان نشاهد بعض طلائع العدو

وكان يحمل رأفت بك مجنبا بقي لديه من ايام مطاردة العصابات البلغارية ومسدسا ويحمل رئيس اركان الحرب مسدسا وحقيبة ووعاء ماء ومصباحا وكنت اكثرهم اعباء

قطعنا المرحلة الاخيرة والشوق بالغ منا مبلغه وافياؤنا تستطيل على الرمال قبيل غروب الشمس استطالةً لاحد لها . ولما جن الليل اخذنا نسير متثاقلين في ارض كثيرة الرمال وقد اعيانا التعب في مواصلة الجهد مدة يومين وسرنا مهومين[2] وامامنا ضوء

---

(١) العدوة بضم العين وكسرها : المكان المرتفع او جانب الواد

(٢) هوَّم الرجل تهويمًا : اذا هز رأسه من النعاس

نتبوره من بعيد حاسبين انه يضيء في كتيبة الخيالة وكنا نتهافت عليه متأملين بلوغ القصد . ولما دنونا منه عرفنا انه لم يكن ضوء مصباح ولكنه ضوء نار مباسية ، فرأينا ان نعرج علَى هذه النار التي املناها وترجل قائد الجيش وترجلنا معه فوجدنا فريقا من جند الاستحكام يحرسون بعض الجسور الثقيلة التي تعوم و يلزمهم ان يبلغوها مكانها في الميعاد

وكانت الانوار الكشافة علَى ساحل القناة تبلغ هذا المكان وتنعكس الوانها علَى ذرى الرمال ، وقد الفنا مناظر الصحراء المتشابهة وسئمناها فتبدلت المناظر ودخلنا في ساحة الانوار الكشافة التي كانت لشدة قوتها تقطع مسافة عشرين كيلومتراً

وما اشق عمل ذلك الفريق من جند الاستحكام فانهم كانوا يعينون ستة ثيران علَى سحب جسر لم تطق سحبه وما اشجي هذه المنظرة وابلغها : منظرة تعاون البشر والثيران تعاونا قلبيا ! وكان يوقد النار جنود لم يصرفهم مجيء القائد عما كانوا فيه من عناية واهتمام . وفوق النار قدر فيه رأس بعير ذبيح يطبخ قد افرغوا عليه ما في اوعيتهم من المياه فوقفت انتظر نضوجه ، واخذت الثيران قليلا من الراحة في أثناء هذا الانتظار . ووقف معسكر الجيش بفضل البعير يستريح زمنا لم يكن في خطته ، غير

ان البعير لم ينضج وكان عَلَى الجندان يبلغوا الجسر مكانه قبل مطلع الفجر فامرهم قائدهم بسحبه فاخذوا يسحبونه مع الثيران غير مبالين بالانوار الكشافة وذهبت مساعيهم ادراج الرياح ، فلا رأس البعير نضج ولا ما وهم بقي وخابت آمالهم · وهل ينقص غزوة مصر خيبة امل ؟

ان نقل الجسور امر شاق وقد رأينا مشقته باعيننا وعرفناها بانفسنا فقطعت الجسور صحراء التيه ووصلت الى القناة ولم يذق ساحبوها من الضباط والجنود حساء مدة اسابيع

اثر في نفس رئيس اركان الحرب ماراه فقال يناجي ربه: « اللهم ارحم هذه الامة المسكينة ومتعها باستقلالها جزاءً وفاقا لما قاسته من آلام وعانته من مشقات ، واذا لم تبلغها آمالها فانى اشك في عدلك » · سمعت هذه الكلمات منه ورأيت الدمع يتساقط عَلَى وجنتيه فامتلأت جوانحي شكرا له لم اشعر به من قبل

ولا ريب ان هذه الكلمات خرجت من اعماق جوارحه ، غير انها من الشعر والشعر ابعد مايكون عن تعبئة الجيش وان كان يتصل بالجندية في بعض شؤونه · اما تعبئة الجيش فانها تستند عَلَى قواعد رياضية ولا يستطيع شعر او مناجاة او اي شيء ان يؤثر عَلَى حكم القوانين الطبيعية بعد ان بلغت هذه الحملة القناة

التي حمتها انكلترة باسطولها وانشأت فيها سدا من حديد ، والظفر في الحرب نتيجة صراع القوى المادية فيدركه من كان اشد بأسا واكثر عدة واعظم قوة مادية . واما القوة المعنوية فانها تعين القوة المادية فتزيد في العزيمة والثبات والصبر ، وتسمو بهذه الخصال الى اسمى درجاتها التي تعين علَى ادراك الظفر وليس للقوى المعنويــة تأثير غير ذلك . ثم ان الذخيرة المحدودة والمدافع ذات الخمســة عشر سنتيما لاتغني شيئا في مباغتة حماة القناة الايقاظ ، ولو امكننا عبور القناة لجاء الاسطول وخرب الجسور وقطع مواصلات الحملة غير انه لم يكن مجـال لأعمال الفكرة في هذه المواضيع ولم يبق لنا غير المخاطرة و بذل العزائم والهمم باقصى مـا يستطاع حتى نتم ما بدأنا به ونخضع احكام المقادير ونجعل المستحيل ممكنا!

برحنا موضع الاستراحـة واخذت انوار الكشافة التي لا نعرف مقرها تتطاير فوق رؤوسنا فكأن الجن والشياطين اقاموا فى هذه الليلة زينة خارقة للعادة

ثم وافينا كتيبة الخيل فرأينا انفسنا امـام منظرة سحرية ورأينا القناة امامنا ورأينا الكشافة المصفوفة في جانب بعضهـا بحيث لا تبعد الواحدة عن الاخرى مترين او ثلاثة فتقلب الدجى نهارا وتظهر قناة السويس كقرص من لجين وتتألق السفن

في مجراها بما يسطع عليها من الانوار وتسير في القناة سيرا وئيدا[١]

ولاحت لنا مدينة الاسماعيلية ومواضع طوسوم وسرابيوم هادئة ساكنة ورأينا ظلال السفن في الماء وآثارها في السماء . ولا استطيع ان اصف تأثير هذه المنظرة التي فاجأتنا بغتة وكنا نظن ان صحراء سيناء لاحد لها ولا نهاية بعد ان قضينا فيها اياما طوالا بين كثبان الرمل والاعاصير والحيوانات المتحجرة وقد ظهرت لعيوننا الآن مناظر مدنية خلابة ، فكأن محاسن الحياة وبدائعها خرجت لنا من جوف الرمال فجأة بكل ما فيها من رقة وروعة

ما كان اجمل مرور السفن في القناة وكأننا قدمنا لنفسد هذه المناظر الساكنة الوادعة وكنت اشعر تأنيبا في نفسي ووخزا في ضميري . وقد ساورتنا الحيرة لان جميع الاهوال التي كابدناها والاخطار التي اقتحمناها في الصحراء لم تعق السير والسفر في القناة وكان ذلك استهزاء بنا . ولعل ركب السفن وقفوا على ظهورها بعد ان اكلوا هنيئا وشربوا مريئا وراحوا يتمتعون بمناظر المدينة البديعة التي وهبتها اياها الانوار الكشافة ويستبقون في خواطرهم ذكراها . فلنا بعض الحق اذن في مهاجمة القناة انتقاما من

(١) اتأد في مشيه وتوأد «من التؤدة» : وهي التأني والتمهل

المستهزئين !

انتشيء في كتيبة الخيل موقف رصد ووقف فيه احد ضباط اركان الحرب ينبئنا بما يراه فذكر ما يظهر له من السفن التي تمر ووجهة سيرها والانوار الكشافة والقطرات المدرعة والطرادات واشباه ذلك ·

وكان هذا الضابط يروي مشاهداته ساكنا هادئا كمن يروي حادثة مألوفة لاشأن لها وكأنه في تمارين حربية في جوار الآستانة او كأنه يلعب لعبا حربيا في دائرة اركان الحرب العامة وكان هذا الضابط في طوره اهدأ من القناة واكثر سكينة واربط جأشا

واذا نظرنا الى الاشياء من حيث طبائعها رأينا في هذا الرصد فوق هذا المكان ما يبعث في النفوس من الهياج مالا يستطاع وصفه

نمنا في رمال كتيبة الخيل اللينة في حفائر صغيرة احتفرناها الى ان ايقظتنا الطيارات في فلق الصبح ·



٩ — الغارة

خطة الهجوم — الاوامر الى الجيش — تقسيم المهاجمين — واجبات الذين يعبرون — حماة القناة — محاضرة فون كريس — احتياط الجيش — عاصفة هائلة — الكثيب ذو العلامتين الضلال عن مكان الرصد — العبور — اشتراك القطرات المدرعة في القتال — المشهد الرهيب الأعياء في الجنود — حقيقة الموقف.

اجتمع قائد الجيش وقائد الفيلق وسائر القادة وضباط اركان الحرب والضباط الفوارس في مساء ١٩ شباط بعد ان رجعت آخر طيارة للعدو من اجراء كشفها وذلك لتلقي خطة الفيلق الثامن من فون كريس بك حتي يعرف كل امرىء تفاصيل ما يحتم عليه القيام به ولا يبقى مجال لشبهة اوتردد. وكانت خطة الهجوم تستند على اساس المباغتة ، والمكان الذي وقع عليه الاختيار بين طوسوم وسرابيوم اي بين الاسماعيلية و بحيرة التمساح و بين البحيرة المالحة القائمة في جنوبيها وهو يبعد قليلا عن مكان اجتماع الجيش و تقوم خمس كتائب بحركة العبور وتتظاهر سائر قوى الجيش وسرايا الاجنحة بمهاجمة الانحاء التي تقابلها من

القناة ، والقوة التي يناط بها العمل تبرح مكان اجتماعها في مساء اليوم المقبل بعد غروب الشمس وتسير موازية للقناة ثم تجتمع في جهة العبور لاخذ الاهبة و بعد ذلك تنقلب الى اليمين وتتوجه الى القناة . واليك بيان الاوامر التى اعطيت لها :

١ = انسحب جيش العدو بأمره الى عدوة القناة اليمنى

٢ = نغير عَلَى القناة ليلة ٢٠ - ٢١ شباط سنة ١٣٣٠ محاولة الأستيلاء عليها

٣ = يغير الجناح الايمن عَلَى القنطرة واللواء ٦٨ عَلَى الاسماعيلية والجناح الايسر عَلَى السويس

٤ = تقف المدفعية الثقيلة في جنح الليل مستعدة مع كتيبة المشاة في (بير فواره) وتمد المدفعية بكتيبة من اللواء الثامن والعشرين وعليها ان ترمي سفائن العدو وتخربها في بحيرة التمساح واذا تيسر لها تغرق سفينة النقل عند مدخل القناة

و بعد ان تتم هذا العمل تقصد الجنوب وتطلق نارها عَلَى السفن الراسية في البحيرة

٥ = تتهيأ الوية المشاة في معسكراتها لتسير في الساعة السادسة بعد ظهر يوم العشرين من شباط ويقود رئيس اركان الحرب الزحف الاول .

وتساق الالوية في باديء الامر الى حيث يوجد صناع الجسور وتأخذ كل فئة مهاجمة من السرايا ثلاثة جسور ومعها جند الاستحكام ثم تساق الى موضع التأهب ويأخذ فون كريس قادة السرايا بعد ظهر ٢٠ شباط سنة ٣٣٠ ليدلهم عَلَى مواطن الهجوم ومواضع رفع الجسور فيقفون امام القناة التي هي غرض المهاجمين وتقف وراءهم سرايا الخط الثاني ٠

ثم يكون المهاجمون ثمانية اقسام وتترك الحيواناب والعجلات وخيول الرشاشات في مكان التأهب ويكون الجند المهاجم او الجند المرابط في الخط الثاني عَلَى نظام السرية وتحمل كل زمرة جسراً وتكون المسافات التي تفصل بينها ٤٠ او ٥٠ خطوة ويسبق كل زمرة نفر من الكشافة يقودهم ضابط صغير ويؤلفون من ستة جنود ، ويقود كشافة القلب ضابط وتمشي الكشافة منفصلة عن بعضها بمسافة تتراوح بين ١٠ و ٢٠ خطوة وتسير وراءها السرايا بمسافة ١٠٠ خطوة وتتبعها سرايا الخط الثاني بمسافة ٣٠٠ متر ويستمرون في سيرهم بلا انقطاع الى القناة حتى يقطعوا ثلاثة اواربعة كيلو مترات تبتديء من مكان التأهب ويركبون الجسور عَلَى القناة وتحتل افواج الرشاشات سد شرقي القناة وتقابل العدو اذا اطلق عليها النار ٠

وفي هذه الاوامر تفاصيل ما على الجنود الذين يعبرون من الواجبات في العدوة الثانية فالسابقون اليها يحتلون الماء وتمضي السريتان الاوليان في جهة الغرب مسافة ٥٠٠ أو ١٠٠٠ متر وبعد ان تحتشد سائر العساكر تحتل الكتيبة الأولى رابية طوسوم بقوة يسيرة ويتخذ ما بقي احتياطا في جنوبي الرابية ويتقدم لواء متوجها الى السكة الحديدية من الغرب ويقف في طرفي السكة امام الاسماعيلية ويذهب لواء آخر في جهة الغرب نحو السكة ثم ينعطف الى الجنوب فتستقر هنالك كتيبة منه لاجل حماية الجناح الايسر وتكون الكتيبة الثانية احتياطا للقلب فاذا صادف مقاومة هجم بالحراب وينشيء الاستحكامات في المواضع التي يحتلها

ويفهم من هذا الايضاح ان الغاية التي يرمي اليها الفيلق احتلال ساحتين كلاهما تسامت[1] القناة عموديا الواحدة من الشمال والثانية من الجنوب وكلاهما بين السكة الحديدية والقناة

وكان على كل واحد ان يضع على ساعده شارة بيضاء لاجل التعارف واتخذ كلمة «اللواء الشريف» شعارا ومنع الكلام والدخان وامر ان تربط آلات التحكيم والحراب وسائر الآلات

---

(١) سامته : قابله

ربطا محكما حتى لا تتقلقل ولا يستمع لها صوت وامر ان لا تحشى البندقيات محاذرة وقوع خطأ يفشي سر المباغتة وان تعلق الحراب في رؤوس البندقيات

واذا لم ننظر الى التمكن من انفاذ هـذا الامر او خدمة فاننا نجده قد احتوى من البراعة في حسن التأليف ومن سمو الهمة وبعد العزيمة ما يحير الالباب ·

فالبلاغ الذي اصدره المرحوم سليمان باشا بعد ان صلى ركعتين قبل الاشتباك بمعارك « شبقة » التي دامت سبعة ايام ليل نهار وبلاغ واقعة قرق كليسا التي فصلت في حرب البلقان لم يكن فيهما جمال هذا البلاغ وروعته ولا اتقان تفاصيله وفروعه ·

وقد اثر في نفسي منه اكثر من كل شيء المادة القائلة بتخريب السفن التي في بحيرة التمساح وتطلق النار بعد الانتهاء منها على الطرادة التي في البحيرة المالحة وكان الالمان يعللوننا ويمنوننا في الآستانة بقولهم ان المدرعات لا تستطيع اطلاق النار من القناة لأن اهتزازاتها تقوض الاسداد فانظر الى ما في التلقين وتكرار القول من عظم التأثير فلقد قنعنا بذلك والفته نفوسنا حتى كنا نظن ان بقاء هذه السفن هو على سبيل خطأ وغفلة وانها لا تعتم ان نقرطسها قنابلنا

ولم يكن فيه تفصيل عن قوى العدو وان كان لدينا علم بها من قبل واليك مااتصل بنا :

انشيء خطان للدفاع عن القناة الاول في شرقيها والثاني في غربيها والمعول عليه خط الدفاع الغربي واما الشرقي فهو للحراسة والمراقبة غير ان القنطرة كانت منيعة ويمتد موضع الدفاع الاساسي ثلاثين كيلو مترا ويصادف شمالي القناة ووسطيها ٠

في خطوط الدفاع مدافع ثقيلة وخفيفة والغام ورشاشات تحمي القناة من اولها الى آخرها وقطرات مدرعة رمادية اللون وفي كل واحد مدفعا سفينة ومدفعان رشاشان و١٠٠ مقاتل وكان حماة القناة يناهزون ١٥ الفا بين هندي وبريطاني ما عدا قوى المصريين والعمال وان لم يكن لدينا تفاصيل عنهم وفضلا عن ذلك فانه من المبين ان تنجد القناة يوما فيوما بالجيوش التي تمر بها قادمة من المستعمرات في آسيا واوستراليا٠

وقداغفل ذكر ماتقدم حتى لايؤثر في قوة المهاجمين المعنوية التي فون كريس محاضرته والشمس تغرب في آفاق مصر والجو ساكن والهواء طلق والموقف رائع ونحن على اهبة الواقعة التاريخية التي تقوم بها هذه الطائفة من الناس المحتشدة في

بقعة من صحرآء سيناء ولم يكن لفون كريس من الحزم والعزم في يوم من الايام مثل ما كان له وهو يلقي هذه المحاضرة لانه اوشك ان يجتني ثمار مساعيه وما اعظم مساعيه في الايام الاخيرة ، فقد ذهب بنفسه مرارا الى القناة وكان يجتهد في ظل خيمتين و يشرب الشاي وفوقه طيارة للعدو دانية .

وكان كل انسان امامه في اثناء المحاضرة غير كفوء له ولم يزل وهو مدبر هذه الفاجعة وصاحب امرها متمسكا بالتواضع ولين الجانب مع معرفته بما له من المكانة واضافته اليها الثقة بنفسه والتثبت من امره وكيفما كان الرأي فان منظر هذا الرجل يستوجب غبطته وهو عَلَى كل حال فوق الطبقة الوسطى من الرجال .

اما الفرقة العاشرة فقد وافت مقدمتها بئر السبع في ٣ شباط وهي موءلفة من اللواء الثامن والعشرين ومن مدفعية صحراء سريعة وقامت من بئر السبع في ٨ شباط فوصلت كتيبة الخيل في التاسع عشر من الشهر المذكور ووصل اللواء التاسع والعشرون الى كتيبة الخيل في ٢٠ — ٢١ و يتوجه الى القناة في الليلة نفسها وتبقى كتيبة المدفعية الاولى في حفير العوجا بسبب المياه والموءن

وقرر ان توءلف الفرقة العاشرة احتياط الجيش واليك ما ذكر

في بلاغها :

١ = يعبر الفيلق الثامن باجمعه القناة و يستقر في نجد طوسوم

٢ = يعبر معسكر الفرقة العاشرة بعد لوائها الاول و يغرب جنودها متجهين الى الدسكة و يكون الاحتياطي العام وراء الفيلق الثامن

٣ = يعبر معسكر الجيش بعد لواء الفرقة الثاني اى الـ ٢٩

ففي يوم العشرين من شباط تلقي الحقيقة المرة قناعها وتضع الاحلام اللذيذة حجابها ، وفي هذا اليوم تعد التجريدة اقصى عدتها للعبور وتنتقل باسرها فتقابل المكان الذي اعد لذلك و يذهب معسكر الجيش بعد هزيع من الليل فيقف في مكان بين القناة و بين كتيبة الخيل عَلَى نجد يبعد عن القناة مسافة اربعة او خمسة كيلو مترات وقد نفضنا[1] هذا المكان قبل الظهر وعرفنا طرائقه وسبله

تناولنا طعام الغداء ومكثنا في المعسكر نستريح قليلا وتمت اعمال التأهب ولم يبق علينا الا الانفاذ و بينهما فصل راحة مملة . وانتهى كل ماتستطيع القوة البشرية ان تعمله في تلك الظروف ولم يبق الا نحو نصف يوم لمباشرة التطبيق والاجراء

(١) نفض المكان : نظر جميع ما فيه حتى يعرفه

وبينما نحن في ذلك ثارت عاصفة باقصى شدتها فلم نكن نستطيع ان نشاهد ماحولنا وظننا ها بادي الرأي بشارة رحمة لانها كانت تعصف من الشرق الى الغرب ورجونا ان تخفي ماناأخذه من اهبة وتحول دون كشف طيارات العدو غير ان هذا التفاؤل لم يدم طويلا بل انقلب الى يأس لان العاصفة بلغت مبلغا لايستطيع معه احد ان يبرح مكانه او يأتي باقل حركة او ينطق بكلمة وكان على القادة عمل كبير في هذا الزمن ولكل دقيقة وساعة حساب في جدول اركان الحرب

ولم يكن من المتوقع هبوب هذه العاصفة الهائلة قبل الغارة بساعات وهي تبدل منظرة الارض الرملية وتغير تكونها وتفسد اعمال الكشف الاخيرة .

ما كانت هذه العاصفة بالبشرى التي يسكن اليها بل كانت ذات ضرر بالغ واذا غضبنا فماذا ينفع الغضب ؟ وهل تغير القوانين الطبيعية سيرها وتنقض احكامها لاجل تجريدة عثمانية قدمت القناة ؟ وهل من شأن الطبيعة اثارة عاصفة تؤثر في مصير تجريدة عثمانية ؟ فما اضعف الانسان واصغر مساعيه امام قوى الطبيعة وشدائدها ؟ وقد عرض في خاطري حينئذ قول بخنر (ان قوى الطبيعة وحشية قاسية) .

بقيت في جيبي برتقالة من بئر السبع حاولت اكلها مستقلا بها في هذه الزوبعة فملئت بالرمال وكنت آسف عَلَى قطراتها المتساقطة ٠

سكنت العاصفة بغتة كما ثارت بغتة فقمنا ننفض عنا رمالها التي نكرت معارفنا ونفذت الى كل شيء، ثم توارت الشمس في حجابها واستقبلنا ليلة قلما يصادف مثيلها بهاء ورونقاً ولطافة ولا كسمائها صفاء ونجوما متشابكة كأنما هذه النجوم اشرقت على الارض لتشهد حلول الرزية في هذا المكان

وما اجمل ليالى البلاد الحارة وارقها ولقد ظننت باريس مضطرمة في اول ليلة حللت بها بعد بلاد عسير ٠ رأيت السماء محمرة باضواء (مدينة النور) لا يلوح لنا كوكب فيها وهي مكفهرة مغيمة فحدثت حينئذ فتحي بك الملحق العسكري بلمعان السماء في عسير فقال انه يختار ارض باريس على سماء عسير ٠ ذكرت هذه الكلمة عَلَى شفير القناة فضحكت لها ، وقد يهتز المرء طربا اذا ذكر حادثة ماضية وان كان في احرج المواقف ٠

تحول مقر الجيش بعد طعام العشاء من كتيبة الخيل الى مكان الرصد وسار عَلَى اثره اللواء الثامن والعشرون من الفرقة العاشرة وقد انتخب هذا المكان في النهار و بينه و بين القناة خمسة

كيلو مترات وهو قليل الارتفاع اطلق عليه اسم (الكثيب ذو الملامتين) غير انا لم نستطع الاهتداء اليه في جنح الدجى على اننا اتيناه مرتين في النهار ولاح لنا ضوء منارة هنالك ولم نعرف ان كانت فوق الكثيب اولم تكن كما اننا لم نعرف الذي وضعها ·

ثم اهتدينا الى الكثيب الذي لا يبعد مسافة نصف ساعة بعد ان جلنا مسافة ساعة وقد ضل اللواء التاسع والعشرون في بحثه عنه كما ضل قائد الفرقة الزعيم « فون ترومر »

ترجلنا وراء الكثيب وصعدنا اليه وكان بيننا و بين قائد الفيلق مسافة مئة متر وكان كريس يرشد الجند المهاجم وقد انقطع اتصال قيادة الفيلق بموضع التعبئة بسبب انقطاع اسلاك التلفون وكنا نلجأ الى معاقلنا ونسكن فيها كلما انبثقت الأنوار الكشافة من كل صوب وحدب وخطفت الابصار بضوئها · فهل كانوا يعلمون بما عولنا عليه في هذه الليلة ام هم يعملون ذلك في كل حين ؟

قدّرنا ان يبتدأ بالعبور في الساعة العاشرة وان يأتي دور معسكر الجيش في الساعة الثانية ولكن مضت الساعة العاشرة ولم نتلق نبأ عن الهجوم ولم نقف له على اثر فهل كان هذا الصمت دليلا على نجاح المباغتة ؟ ولم يكن لدينا اسلاك تلفون

تسرع الينا بحمل الانباء . ومهما كانت هذه الظنون معقولة فاني لم اكن اظن ان حركة المرور قائمة ولم يقع في خلدي انني اعبر القناة في صباح الغد الرائق .

ضل اركان المعسكر في طريقهم الى محل الرصد ولم يتيسر وصله بمحل التعبئة غير انه مما يسبق الى الظن ان تتأخر سرايا الهجوم عن القيام بعملها في ذلك الظلام الدامس كما تأخر وصول الزوارق ومدافع الصحراء بسبب الزوبعة التي بدلت الارض غير الارض

مضت الساعة الحادية عشرة فالحادية عشرة وثلاثون دقيقة واوفت على الثانية عشرة والسكون مخيم في تلك الارجاء والانوار الكشافة تنتشر في الفضاء وتجتاز بنا متتابعة وقد مالت بعض الكواكب الى الغروب واخذت تسطع في الشرق كواكب اخرى وخمدت الاصوات وحال التشوف واختلاج القلوب دون كل شيء

ففي منتصف الليل وفي وسط هذا السكون اخذت ترن في آذاننا اصوات غريبة مجهولة كرجع الصدى وكأنها خارجة من الحجارة والجمادات والكواكب السائرة او من تلامس الانوار الكشافة بالرمال ولم تبق الا دقائق حتى تنقضي ليلة الهجوم

ويتبلج الصباح .

اخذ الكرى بمعاقد الاجفان بعد منتصف الليـل وطرحنا الاعياء عَلَى الثرى ولم يبق فينا من لم يرقد مهما كان شديد العزيمة

ففي ليلة هذه المباغتة على مسافة اميال من قناة السويس كان نفر من الناس رقودا عَلَى تلك الرمال تلاعبهم الانوار الكشافة فتقرضهم ذات اليمين وذات الشمال لافرق بين الكبير والصغير ولا تفاوت في المراتب والمنازل كالانعام بعضها الى جنب بعض غير اني بقيت هاجعا انتفض من البرد واطالع ابراج السماء التي تشرق وتغرب وانظر الى الساعة بين حين وحين كأن بين عقاربها و بين نجوم السماء اتفاقا وعهداً .

فلا الآمال التي عقدت عَلَى غزوة مصر في الآستانة والشام ولا المقالات الافتتاحية التي كتبتها طنين ولا شيء سوى ذلك اثر في السماء وسيرة نجومها ولا منح هذه الجريدة المنكودة دقيقة من الزمان ولم ادرك كما ادركت في تلك الليلة مبلغ تأثير الزمان في مقادير البشر وشؤونهم وتاريخهم فملكتني عيني وذهبت صريع الكرى

لا اعلم مدة منامي وقد استيقظنا جميعا عَلَى اصوات المدافع الرشاشة كأنها نفير النهوض وقال قائد الجيش : هـا كم اسمعوا

اى انه صار ما انتم تنتظرون . وذهبت الى قائد الفيلق ولم يكن قد جاءنا خبر من الاخبار ولم يسمع لنارنا صوت ، اما ذلك الصوت المتقطع الرفيع اليابس فهو صوت رشاشات العدو من عدوة القناة الثانية . فماذا كان يجري في القناة حينئذ ؟ يالها من دقائق اضطراب ! حار قائد الفيلق واستشاط غضبا لان الرشاشات تدافع عن القناة فتذكرت كيف ظهر خطأ كثير من الآراء والمعتقدات التي كان يؤخذ بها قبل الحرب ولكن لم يظهر ذلك الا بعد نزول النازلة . لقد استخف بمقدرة الانكليز عَلَى الحرب ايما استخفاف ولم يكن يصدق انهم يُؤلفون جيشا عرمرما وقد نقل رئيس اركان الحرب عن الاميرال شوسون قوله : « صدقوني ان الانكليز اضمحلوا » فالجهاد المقدس وخطر اتحاد الاسلام وظهور الثورات في مستعمرات فرنسا و بريطانيا وبلوغ النتيجة الحاسمة في الحرب عما قريب وشأن الغواصات وما اشبه ذلك من الآراء والمعتقدات الراسخة التي علمنا ، بعد ان فات زمن العلم ، ما كان اقربها من الخطأ وما اشدها لك احلامها .

ولم يرض قائد الفيلق ان يبقى بعد نشوب القتال في الكثيب العاري من اسلاك التلفون وذهب مع حاشيته في طريق مكان التعبئة فغابوا في الظلام

اقبل بعد ساعة رسول وهو فتى من ملحق اركان الحرب فاعتذر لانه اسرع بالعودة بسبب جرح اصابه وقال ان الزحف الاول عبر الى العدوة الثانية وقد تصاعدت اصوات التهليل منها ثم ورد علينا ان ثروت بك قائد المغيرين سقط جريحا وحمل لتضميد جراحه . فتبين من ذلك ان القتال استحر[1] بين الفريقين واشتد امره وكان ضباب خفيف يستر كل شيء في ساحل القناة كأنه يريد ان يحجب العيون عن مشاهدة الرزية . ويالله ما جرى في ذلك الليل الاليل !

كان فون كريس يقف بين آونة وآونة ويعمل على تحديد الوجهة ثم يستأنف عزيمته ونتيعه السرية . فمقادير التجريدة كلها في قبضة رجل واحد

ولم يكن لكريس بك دليل ومعين في هذا المسير المحفوف بالاسرار الغامضة غير رأيه وعزيمته وذكائه . افلا يصح لنا ان نشبهه بالرجل الذي تولى قيادة شعب قبل خمسة آلاف سنة في هذه الارجاء ؟

ضلت كتيبة الاستحكام والزوارق وزمر المدفعية الثقيلة وكان من البلاء ان لاتكون الاوضاع كاملة في حينها ولم تبلغ كتيبة

---

(١) استحر القتل : اشتد

الاستحكام والزوارق محل التعبئة قبل الثانية عشرة ولم يأخذ الجند بمفارقة هذا المحل الا في الساعة الواحدة ونصف ولم يطق المشاة حمـل الزوارق فتأخروا و بدأ التردد والاضطرات والتواني واخذت الكلاب تعوي منذ اصبح بين الجند و بين القناة ٧٠٠ متر فكانوا حماة القناة الايقاظ وحراسها الامناء . فترا كض الجند من فورهم الى سد القناة الشرقي ما عدا المكلفين بحمل الزوارق وسبقت السرية الثالثة من الكتيبة الاولى من اللواء الرابع والسبعين فحاولت العبور غير ان رصاص الرشاشات اغرق الزورق الاول وقد تمكن ضابط وجندي من العبور الى الساحل وسلم الزورق الثاني وغرق الثالث وعبر زورق آخر من الكتيبة الثانية في اللواء نفسه وتبعه ثان ولكن الزوارق التي تمر لاتستطيع العودة بسبب النار الحامية ولم يكن يتيسر انزال الزوارق في جميع الساحل لاختلاف تكونه بل كان يقتصر على مكان محدود هادىء تنزل فيه الزوارق فتفتك نار الرشاشات المتقاطعة فتكاً ذريعا بالذين يركبونها من جنود الاستحكام او الذين يتقدمون الى الامام من المشاة ، وتغرق الزوارق وادوات الاستحكام

وضعت الرشاشات في العدوة الثانية من القناة وضعا متناسقاً يجعل نارها متحدة في نقطة واحدة فجاهد الذين اقلتهم الزوارق

والذين غرقوا في اليم جهاد الابطال وابلوا بلاء حسنا وكان الضباط يلقون بانفسهم في القناة ليسحبوا الزوارق المثقوبة ويدنوها من الساحل ، ويعتمدون عَلَى سواعدهم في عبور القناة ولم يكن ينفع هذا التفاني في كل حين وغرقت في ظلام الليل الزوارق المكتظة بالشهداء والجرحى · واي شيء يعرف بالبداهة كما يعرف ان الزوارق الخشبية تثقب بالرصاص وتغرق ولكن المرء لا يصدق كثيراً من البديهيات حتى يراها بعينه ويجربها بنفسه ·

ذهبت الهمم والعزائم الخارقة ادراج الرياح وضاع كل ما بذله المهاجمون من جهود وفدى ولم يعبر الا سريتان تصاعدت اصواتهم بالتهليل والتكبير ثم سكنت ، ولقد ارشك الصباح ان يسفر ، وانجد العدو قواه في مواضع العبور ، واقبل يمطر قنابله عَلَى المدفعيات المخبأة ، واشتركت في القتال القطرات المدرعة · واليك وصف المشهد لما حسرت الشمس قناعها وارسلت انوارها عَلَى الكثيب الذي فيه المعسكر :

كان في شرقي القناة خط مقاتلة مرصوص تصلاه نار مشاة ومدفعية حامية ففريق قضى نحبه وفريق ينتظر وفريق هم بالرجوع الى الوراء

وكانت مدافعنا الصحراوية تقابل تلك النار · واما الطرادات

فقد لازمت الصمت كأنها لاتريد الدخول في المعمعة ومدفعيتنا الثقيلة واقفة امامها كذلك

وكانت سفن الاسفار تتراءى متزاحمة وتمر في القناة مسرعة ومخالفة كل قاعدة من قواعد السير فيها لتحتمي في ثغر الاسماعيلية ·

ونحن في هذه الحال انبأنا قائد الفيلق ان جنده يتقاعد عن القتال فينبغي شد ازره بالفرقة العاشرة فامر اللواء الثامن والعشرون بالتقدم ولم يمض غير دقيقتين حتى صار في حومة الوغى علَى غاية ما يكون من الدربة والنظام وحسن الحركة والانثناء والاعتدال طبقا لما تقتضيه الارض والنيران وقد مضوا في سبيل القناة لايلوون عَلَى شيء بأقصى جرأة وعزيمة وكانت منظرة تستوقف الابصار وتخلب الالباب ، وما كاد يقف هذا اللواء في مواقفه حتى ثبت الفيلق الثامن ونشبت بين الفريقين نار حرب شعواء الى ان نشر الليل اجنحته السوداء

ولكن لماذا لم تشترك مدفعيتنا فى القتال واين (هاى باي؟) وكنت اكرر هذا السوآل مرغما · وهاي باي ضابط الماني شاب يقود مدفعية الهاون فظهر عمود من دخان متصاعد في وجهة الاسماعيلية بعد انفجار عميق مختنق عرفنا منه دخول المدفعية في

القتال وكانت توجه نارها بدأة ذي بدء الى سفينة مفرغة في صفة معاون طراد في بحيرة التمساح فاضطرت بعد حرب ساعة ان تخرج من المعركة وهي تلتهب التهابا ولكن لم يستمر فوز المدفعية فقد استأنف القتال طراد مدرع في البحيرة المذكورة وناب مناب صاحبه واستمر في القتال حتى اخمد المدفعية · ثم اخذ يوجه النار مع طراد آخر في البحيرة المالحة الى اغراض اخرى · فزالت من اذهاننا الى الابد خرافة القائلين ان السفائن الجسيمة لا تستطيع اطلاق النار في القناة · وكانت الطيارات تقوم بالكشف بدون انقطاع وبجهد لا يعرف الكلال فتنظم نيران الطرادات ومراميها وقد بلغ اتحاد مساعيها مع نار المدفعية حد الكمال فتصيب الطرادتان الاغراض التي تشير اليها الطيارات في آن واحد وكان الغرض الاقصى اصابة مخبيء مدفعياتنا وكثيرا ما استهدف المعسكر للنار · ولم ينتخب مكان الرصد لقتال النهار بل كان ينتظر ان لا تنجلي الغياهب قبل عبور القناة فحق لنيران المدافع وقنابل الطيارات ان تلاعب المعسكر وتكره رجاله على طواف ميدان الحرب رجالة وركبانا الى يكنهم[1] الليل ·

وجاء قبل الظهر تقرير من قائد الفيلق يقول ان احراز

(١) كنه واكنه الليل : ستره

القناة بغتة اصبح متعذرا فعلينا ان نحرزها عنوة وان نعمل على ادراك التفوق بالنار ونقاتل الى المساء ونعاود حركة العبور في الليل ·
فاستصوب هذا الرأي وابلغ قائد الفيلق انه اضيفت اليه كتيبة مدفعية الصحراء الاحتياطية في الفرقة العاشرة ولكن تبين بعد الزوال ان التفوق بالنار امر مشكوك فيه ، وانه يشك في بقاء ما فيه الكفاية من الزوارق

فاوفدني قائد الجيش لسؤال قائد الفيلق عن حقيقة الموقف من حيث المسائل المادية وحدها بدون اصغاء الى عاطفة او هوى وعن مقدار ما بقي من عدد الجسور · وكان معسكر الفيلق بين المدفعية وخط القتال مكشوفا للنيران فرأيت هنالك اشخاصا ثلاثة قائد الفيلق وفون كريس بك وعلي فؤاد بك ·

اما جمال باشا فكان مطرقا مفكرا واما علي فؤاد بك فكان ناشطا هادئا واما فون كريس فكان مصفرا صامتا خجلا ولكن الثلاثة غير مكترثين بالنار · وما اعظم تبدل فون كريس عن الليلة الماضية فقد تكسرت معالم وجهه واشتد التباين بين يومه وامسه لما كان يلقي محاضرته وهو مفعم نشوة وثقة ورجاء ، فاضحى مكفهر الوجه غائض البشاشة[1] حزين الملامح قانطا من كل شيء

---

(١) غاض الماء غيضا : قل ونضب

موليا ظهره القناة وراء معقل لا يعلو قيد شبر والقنابل تتساقط في جوارنا بين حين وحين كأنها تبحث عن مكامن المدفعية فيرفع رأسه كريس بك خاشع البصر و ينظر الى التراب المتصاعد نظرة الكاره البرم[(١)] الذي يأسف عَلَى تلك القنابل وذهابها ضياعا ويتمنى لو ان واحدة منها اصابته واودت به · فرحمت ذلك الرجل الذي تهدم كل ما بناه من صروح الآمال ورجاه من الايام والليالي في بضع دقائق حببت اليه الموت على الحياة ، فحق عَلَى عليَّ ان ارق له واكرمه واجل قدره واليك وصف الموقف :

تحتل خمس كتائب من الفيلق الثامن مسافة ٤ كيلو مترات امام طوسوم وسرابيوم وهي تقاتل عَلَى بعد ٢٠٠ اوثلاثمائة متر من القناة ولم يبق في الاحتياط الا كتيبة من اللواء الثامن والعشرين ووقفت كتيبة اخرى منه للدفاع عن الجناح الايسر اذا حاول العدوان يخرج جندا الى الجهة المقابلة بحماية الطرادات والرشاشات والطيارات

وكان للفيلق مدفعيتان صحراوان سريعتان تولفان كتيبة مدفعية مستكنة وراء المعسكر في مسافة ٣٠٠ متر ترميه طرادة البحيرة المالحة وطرادة بحيرة التمساح في آن واحد عَلَى

(١) ابرمه فبرم كفرح وتبرم : امله فمل

حسب الرصد .

وقد ذهبت في الليلة الماضية جميع معدات الجسور واختار قائد الفيلق مشافهة قائد الجيش بالامر فقصدنا قصده في نحو الساعة الرابعة ونصف بعد الظهر وتخلف عنا علي فؤاد بك

فسأل قائد الجيش قائد الفيلق عن رأيه بصراحة ووضوح لا غبار عليهما فأجابه : « من الجنود الاعياء فينبغي تعبئة اللواء الثامن في الخطوط الامامية ولكن لابد ان يصيب هذا اللواء ما اصاب اصحابه وتقل الذخيرة بتمادي القتال ولا يصبر طويلاً على هذا الموقف مع ضياع الذخيرة واشتداد العناء

ثم وجه قائد الجيش الكلام الى كريس وقال ليس القصد من هذا الاجتماع توزيع المسؤولية وعقد مجلس عسكري ولكن القصد معرفة حقيقة الموقف ، فيقتضي ابداء الرأي بغير حيطة وحذر فالتمس فون فرانكنبرغ ان يوجه له السؤال قبل بصفة كونه رئيس اركان الحرب في الجيش وقال : لا يرجى النجاح ابدا في الثبات على الهجوم ويجب الخروج من القتال فورا حتى نستطيع انقاذ التجريدة والانسحاب بنظام واذا ابطأنا فليست العاقبة محمودة

فسأل قائد الجيش كريس قائلا اذا كان يرجى النجاح بنسبة

٣٠ او ٤٠ الى المائة فأنه لايحجم عن المخاطرة بالتجريدة

والحل الاخير متوقف عَلَى ما يراه فون كريس الذي يرجع اليه العمل كله في ماضي هـذه التجريدة فمن الصواب ان يكون مستقبلها بيده . وقد اجاب القائد بقوله : لايرجى النجاح مطلقا ولكن الحمية والمروءة تقضيان عَلَى التجريدة بان تحمل عَلَى القناة فتذهب عن اخرها وذلك خير من أن تنكص عَلَى اعقابها ، فمن رأيي المثابرة على القتال .

حقا ان هذا الرأي من أسمى ما يوحي به الشعر والخيال وهو افضل خاتمة لهذه الرزية ينقلب بها غزو مصر الى ذكرى تاريخية خالدة مكللة باكاليل المجد والشهادة ومتممة لحوادث ابطال « الترموبيل »[1] وحماستهم المسطورة بل تفضلها طيب احدوثة

---

(١) الترموبيل : مضيق شهير في تساليا بين جبل انوبه وخليج مالياك ، فيه حاول « له اونيداس » مع ٣٠٠ من السپارطيين توقيف جيش كسرى باجمعه فلم يخطر عَلَى بال كسرى ان هذه الشرذمة من الرجال تستطيع ان تمنعه المرور فكتب الى « له اونيداس » كتابا ليس فيه الا هذه الجملة : « سلم اسلحتك » فكتب « له اونيداس » تحتها « تعال خذها » ولكن احد الخونة هدى الفرس الى شعب تمكنوا فيه من الاحاطة بجبل انوبه . ولما رأى « له اونيداس » ان لا مفر من الموت دعى رفقاءه الى طعام زهيد قائلا لهم : ستتعشى هذا المساء عند بلوتون « وهو ملك الجحيم واله الموتى » اه . — عن لاروس

وشرف ذكر، فيكون السويس ضريح الجريدة العثمانية التي لم تقض لبانتها منه ولا يبرح خيالها ماثلا عَلَى ساحل هذه القناة ما دامت تفصل آسيا عن افريقية ويبقى اثرها خالدا ما بقي الليل والنهار

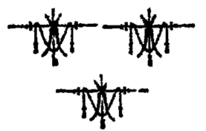
يحق لكريس بك أن يرى ذلك الرأي ولقد بلوت سره وعلانيته وهو يريد أن يمضي في سبيله حتى يبلغ الكتاب اجله وهو لم يدخل في هذا الامر بعد حساب وفكرة وحكمة ولكن دخله مقامرا فليس من الحكمة الانصراف من لعبه بل عليه ان يستمر فيه وكان الرأي الذي ادلى به آخر رمية له ·

فابتدر الكلام قائد الجيش حينئذ قائلا : اذا لم يكن امل بالفوز فأنه ينفس[1] بالجريدة أن تراق دماؤها في سبيل الشرف المحض، ولذلك صحت عزيمته عَلَى الخروج من المعركة وامر بما يقتضيه الانسحاب فنظر كريس بك الى القائل نظرة اليائس لان في هذا القرار الضربة القاضية عَلَى آخر ما يرجوه من امل وهو عنده افدح خطبا من ضياع الزوارق · وكان في قطع المحاربة وقرار الرجعة ظفر معنوي لرئيس اركان الحرب فون فرانكنبرغ الذي هون عليه اخفاق الجريدة وحبوط امرها اساءة فون كريس للشرف والذكر الخالد السرمدي وذلك ما

(١) نفس به (كفرح) : ضن·

كان يخشى ان يدركه اذا نجحت مقاصده وسيأتي معنا كيف انتقم فون كريس لنفسه · وكان اختلاف رئيسي اركان الحرب الالمانيين سببا في سلامة التجريدة ، وقد قال لي فرانكنبرغ بعد ايام : لئن كان كريس يريد ان يموت فليذهب وليلق بنفسه في القناة ولكن لا يحل له أن يحمل التجريدة العثمانية بأسرها على الأنتحار

ولم يكن قائد الجيش كثير التلهف لهذا المصاب ولئن فاته فتح مصر واخلفه منها الذي كان يأمل فحسبه الاوبة الى ديار الشام ·



١٠ الاياب

بلاغ الانكليز في الآستانة — التقاط الجرس — كيف نقطع صحراء التية ؟ — المخاوف — الغنيمة بالاياب — الماء في الخبرة الثانية — هلاك الابل برقيتنا المعسكر العام وفلكنهاين — قيادة البادية ولمز تسند — كريس وفرانكنبرغ — موافاة القدس .

قاسينا عناء كبيرا في الاهتداء الى سبيل قصدنا ولم نتمكن من تحديد الوجهة بعد ان ارخى الليل سدوله وقد صادفنا طالع سعيد فكانت الانوار الكشافة تعين جهة القناة فنتنكبها وكنا نستقبلها بين حين وحين بعد أن نرسم نصف دائرة في ذلك الظلام غير مختارين وكلما واجهتنا الانوار نكصنا على اعقابنا وكنا ننادي من كل جانب « شمنطو ! شمنطو ! » وهو جندي يهودي في خدمتنا فسمعنا آخرة الأمر صوتا ضئيلا تعرفنا به المعسكر ولا ادري ماذا كان مصيرنا في جوف الليل لولا الانوار الكشافة .

ولم نجد حاجة الى الاسراع بكتابة التقرير لانه لم يكن اتصال برقي فسرنا ذلك وتسلينا قليلا لأننا لانضطر الى الانباء بمنازلة في الحال

وفي غضون تلك المدة احاطت الآستانة علما ببلاغ الانكليز وبقيت تنتظر ما يأتيها من لدنا وكانت تظن المصيبة هنالك باقصى شدتها فاذا جاءها تقريرنا هان عليها وخف عنها الالم والفت وقع الحقيقة . والنجاح والخسران ، والسعادة والشقاء كل ذلك في هذه الدنيا متشابه يقاس بعضه ببعض واذا كنا نرمي الى فتح مصر فان النتيجة تعد هزيمة ولكن اذا كان القصد القيام بمظاهرة عسكرية حول القناة فقد تمت المظاهرة وتجلت بأبهى مجاليها ، ولقد قال الجنرال فلكنهاين بعد ثلاث سنين في القدس ان هجوم القناة يسر اعداد اساليب الدفاع عن الدردنيل والتمكن منها . فجاء بالفوائد المطلوبة من حيث تعبئة الجيش

والناس يعللون انفسهم عند مواجهة المحال ويهونون عليها واليأس احدى الراحتين ، والسعادة التي نسعى وراءها ولا ندركها هي التي تثير الاضطراب . وكان من المستحيل ان تستولي على مصر الدول المركزية التي ملكت عليها مخارج ابحار ومساربها ولم نكن نرى هذا المستحيل ولا نعتقد به غير انا الآن لما جربنا بانفسنا فعلمنا ما لم نكن نعلم ورأينا ما لم نكن نرى عادت الينا عوازب احلامنا وايقنا ان ما كنا فيه هو الباطل

فاسلمنا اجفاننا الى الكرى وتمنا ليلتنا هادئين مطمئنين ولم نشعر بما وجدناه من راحة ولذة حتى افقنا ورأينا السماء قد امطرتنا وبلت ثيابنا

وقضينا اليوم الثاني والعشرين من شباط سنة ٣٣٠ في كتيبة الخيل ونحن نلتقط الجرحى ونلم الشتات ونضم النشر ولو نازلنا العدو حينئذ لنازلناه وصمدنا له ٠

وقفنا نتساءل كيف نقطع صحراء التيه مرة ثانية ؟ وذلك اهم شيء لدينا لأننا لم نعد له عدة بل لم تعرض لنا الرجعة عَلَى عَلَى بال ولا بد ان القراء عرفوا من مطالعة ما كتبته ان كل ما بذل من المساعي هو لاجل بلوغ القناة والمكث امامها نحو بضعة ايام وكنا نعتقد ان الاوبة من صحراء سيناء مرة ثانية هي الهلاك بعينه ٠ فما من وسيلة الى النجاة الا اختراق القناة والانقضاض عليها والعبور الى العدوة الثانية حيث الأمن والامان ورغد العيش وطيب الحياة وقرة الاعين و بغية النفوس ٠

فاما وقد كتبت الرجعة ولم يبق محيص عنها فأين المآء والميرة وهل تأتينا قطرات الابل بما نحن في حاجة اليه فتنجينا من الهلاك ظمأ وجوعا وليس دفن التجريدة في التيه الا امراً يسيرا هينا ٠ وقد بقي علينا ان نحسب حساب العدو ومتابعته لنا اذ

يمكنه ان يسوق فرسانه كلهم الى العدوة الثانية من القناة عندما يأتيه نبأ انسحابنا فيقتفوا آثارنا بسرعة و يثلموا خط رجعتنا او يحدقوا بنا . فتجادبتنا هذه المخاوف وقضت علينا ان نسرع بالرجعة غير ملوين على شيء ولا يجوز اضاعة ساعة واحدة ولا الوقوع في خطأ مهما كان يسيراً لأن الموقف شديد الخطر عظيم الحرج . وقام في نفوسنا مقام فتح مصر الاكتفاء بسلامة العودة ورضينا من الغنيمة بالاياب و كانت تتراءى لنا هذه الصحراء كعدو لايقاس به عدو ، وكذلك اصبح همنا فما اشدهبوط الفكرة في مدة اسبوع ؟

وفي ليلة ٢٢ — ٢٣ من شباط سنة ٣٣٠ برحت الحملة بأمرها كتيبة الخيل الى الخبرة الثانية وكان علينا ان نمتطي الليل ونتأهب في النهار للقتال الى ان ننأى عن ساحات الحرب فوجدنا صهريج الماء في الخبرة الثانية محاطا بالحراب ومعنى ذلك انه لايزال فيه ماء وان كان نقص عما قبل ثم قسنا عمق المياه واستطلعنا مقدارها وحسبناه حسابا دقيقا ، والاضطراب بالغ منا حده فوقعنا فيه علَى سقاية ايام

ما اعظم هذه البشرى انها كانت دليل النجاة وعنوان الخلاص وعونا كبيرا على الارتداد فخوات قطرات المياه الى قطرات

مؤن وارسلت رسل الضباط من المجانة الى المنازل لترسلها وتجد في سوقها ولا ترفه عنها حتى تصل الينا ·

استرحنا يوما في هذا المكان الذي ييسر فيه بعد ان يحملوا معهم ماء يعينهم على قطع المنازل التي لا ماء فيها والحمد لله على ما انعم علينا في ذلك الصهريج ولو اننا لم نجد فيه ماء لكان الهلاك نصيبنا على غالب الظن · وقد علمنا فيما بعد ان البريطانيين حولوا ماء هذا الصهريج الى صهريج آخر ·

ومضى علي زمن غير قصير لم امس فيه الماء ففكرت في الخبرة الثانية ان اسأل حامي الماء سعد الله بك رفيقي في المدرسة شيئا قليلا اغسل به وجهي و يدي ورجلي ولم يكن عدلا ان يطلب مدير شعبة الاعمال الحربية هذا الطلب من الذي تولى توزيع المياه فكأنه يدعوه الى مخالفة ما لديه من الاوامر والواجبات فترددت قليلا في الطلب ثم رأيت الليل أفضل الاوقات فذهبت اليه ورجوته فأجاب طلبي بكل لطف ولكن تبين لي انه يعاملني معاملة استثنائية

وقد انعم الله علينا في الحياة المألوفة بنعم لا تحصى ولا نعرف قدرها لا عند فقدنها فتذكرت في الخبرة الثانية عيون الآستانة وعرفت فضلها وجمالها

خرجنا في النهار من الخبرة الثانية وتوجهنا الى الجفجافة وكنا نتشوف بابصارنا ومناظيرنا الى المسافات البعيدة لنرى قطارات المؤن فعثرنا ببعضها بعد انتظار طويل

وقد اصبحت الابل كأنها هياكل عظمية من الجوع والجهد وكنا نتعجب من مواصلتها الدأب عَلَى مثل هذه الحال ونحن مضطرون لبذلها فدية في سبيل انقاذ التجريدة وقد هلك عند عودتنا الى بئر السبع ٧٠٠٠ بعير اشتركت في تجريدة القناة بعد ان برّح بها الجوع والظمأ وواصلت السير بالسرى

وليست الآلام التي ابقتها الحرب في القلوب من تجريدة القناة الاولى وحدها بل في تواليها وهواديها(١) مايزيد في المضض والكرب فقد هلك نحو ٦٠٠٠٠ بعير عَلَى هذا المثال وابل الاقاليم الحارة ذات شعور وحس دقيق ولا تستطيع مواصلة عمل منظم كما لا يستطيع الجند ان يقوموا بأودها ، ومن الخطأ الفادح ان يظن بأن الابل تتحمل من العطش والجوع والعنت ما لا حد له .

وفي ٢٥ شباط سنة ٣٣٠ اقبل علينا رسول يحمل هاتين البرقيتين :

(١) الهوادي : الاوائل والتوالي : الاواخر

١ — المعسكر العام في ١٣ شباط سنة ١٣٣٠

ان اخفاق الجيش في الاغارة على القنــاة يحدث اسوء تاثير فيجب الهجوم عند التثبت من النجح ولذلك فحسبكم ان تتظاهروا امــام القناة وتعطلوا السير فيها ٠

اما البرقية الثانية فهي المانية العبارة من الجنرال فلكنهاين وفيها : «ان بُعد قوة عثمانية ضئيلة يسيرة عن قاعدتها وامعانها في التقرب الى قواعد العدو يكونان سبب الوقوع في الشر فينبغي اتخاذ كل حيطة وحذر»٠ فكلا هذين الامرين لايقولان بالهجوم على القناة والهجوم وقع قبل خمسة ايام والعمل الذي انجزناه من ذات انفسنا اكثر مما يطلب منا والبقاء امام القناة ، مع النظر الى مسألة المآء والميرة والذخيرة وقلة الوسائط النقلية ، من قبيل تمني المحال

ويعجبني في هذا الصدد ان اذكر كيف وجدت التجريدة ماءها ومؤنها :

لم يكن في البادية مــاء جار على الاطلاق وكان ســيف بئر السبع وحفير العوجة آبار غزيرة المياه وفي كل من الخلاصة وبئر حامه والخبرة الاولى بئر يكفي لورود بضعة آلاف وســيف وادي العريش والخبرة الثانية صهاريج مآء وفي كل يوم يملأ المرء وعاءه من الماء وترد الابل ربعا ٠ والمؤن توزع بانتظام

والشعير مفقود فتأخذ الابل بدلا منه كل يوم نصف كيلو من حتات البقسماط ٠

ولما وافينا الخبرة الاولى وجدنا الخطوط البرقية ممدودة اليها وكانت تنقل الاعمدة عَلَى ظهور الابل التى تحمل لانه لم يكن سواها من عدد النقل فوصل البرق في ٢٢ شباط سنة ٣٣٠ الى الخبرة الاولى وفرشت الاسلاك المغلفة بين الهلال والابن ولكن الابل كانت تطأها فتكسرها ولذلك تحتم رفعها عَلَى الاعمدة ٠ ولم تكن المواصلات التلفونية منظمة مأمونة الا بين كتيبة الخيل والخبرة الثانية ٠

ولما عدنا الى الابن وجدناها متحسنة مزدانة وقد استنبط ماء مالح في مسافة ساعتين منها وتكاثرت فيها الخيام والمصابيح واصبحنا نراها بلدا معمورة بالقياس الى الجفجافة

وعادت الينا الخيالات بتباعدنا عن القناة فأنشأنا في الابن قيادة بادية لمتابعة اعمال الاقلاق والازعاج ٠ ولما كانت تلك الاغارة تسمى في عرف رجال العسكرية كشفا هجوميا وجب الانتفاع منها والتأهب للهجوم الحاسم والاستعداد الكافي له ولذلك اصبحت تسمى التجريدة السالفة رحلة القناة الاولى فان كان اخفق الهجوم فقد اخذت تتوالى بعده اسفار وحملات كان مقدمة لها ٠

فمن الذي ينبغي ان توكل اليه قيادة البادية ؟ ومن الذي ينبغي ان يتوجه الى المانيا ليقدم البيانات الشفوية ويعمل على اجتلاب العدد اللازمة لاستئناف الكرة وكان ينبغي ان يسافر فون كريس بك الى المانيا ولكن رئيس اركان حرب الجيش فون فرانكنبرغ بك فاز بهذا النصيب وغلبه عليه ، وقدرت له حظوة المثول بين يدي القيصر فقرر ذهابه وقلد فون كريس قيادة البادية ورفع من شأنها لمرضاته فجعلت معادلة لقيادة الفيالق وكان في ذلك ظفر ثان لرئيس اركان حرب الجيش « البروسي » على رئيس اركان حرب الفيلق « الباڤيري » وغادر فون فرانكنبرغ القدس في سيارة نخمة اقلته من جوار الباب الاكبر لبناية (اوغوستا فيكتوريا) وله في الحقيقة الفضل والسبق على فون كريس الذي عاد الى الصحراء ولكنه سينتقم لنفسه ويستفيد من هذه التضحية التي جعلت له صحراء سيناء مركز استناد كمركز استناد (ارشميد) ينيله كل ما تصبو اليه نفسه من المطامع .

واجتمع الرجلان بعد ثلاث سنين في الساحة نفسها وبينهما فرق عظيم فلم يبلغ فرانكنبرغ الذي صحب فلكنهاين في تجريدة الصين وصحبه في هذه المرة غير رتبة قائد لواء من المشاة ولم يكن على صدره غير الصليب الحديدي من الطبقة الاولى ومدالية

امتياز فضية . وأما فون كريس الذي هو اصغر منه سنا فقد اصبح جنرالا و باشا وقائد جيش ونال اجل المداليات الالمانية والعثمانية فاستقبل مواطنيه بهذه الحال .

ولما قطعنا الابن وام شيخان ووادي العريش والملال واصبحنا بمأمن اخذنا نسير في النهار ونسكن في الليل

ثم اني صادفت كتيبة الاستحكام التى اصابتها الخسائر العظمى في الحملة وقد اضناها السير على هذه الرمال التي لاحد لها يوصف وعجزت ثيرانها عن جر الاثقال بسبب مانالها من الضعف فرثيت لحالها وترجلت فمشيت بجانبها قليلا لعلي اشاركها في آلامها او استغفر لذنبنا اليها .

مسكينة انت ايها الثيران! ياثيران الاناضول ياثيران ام الوطن! لقد ذهب ما قاسيت من عناء وعنت ادراج الرياح . ولقد تراءى لي في هذه الثيران ووقع في قلبي كل ما لقيته ام الوطن من شقاء وتذكرت جراحها الدامية واتعابها الضائعة في سبيل الاوهام الباطلة وكذلك جمالها وعصمتها ورحمتها وتفانيها . انها لذكرى موءلمة مشجية ! ومن يعلم ياترى لاي يتيم هذه الثيران ؟ ومن هي المرأة التي ابقى لها زوجها ذلك الثور لتتبلغ منه بعد ان لحق بربه في البانيا او اليمن فسلب منها باسم التكاليف الحربية لفتح مصر .

مهد طريق للسيارات بين الحفير و بئر السبع فأرسلت سيارتنا الى الحفير وكنا في اوائل الربيع وقد نشر على وجه الارض غلالة رقيقة خضراء فبدأنا نشعر بأننا دنونا من الحياة الطيبة والمدنية الزاهرة والطبيعة الحسناء ، ولما رأينا مباني بئر السبع ومسجدها وسوقها وازقتها واشجارها ايقنا اننا انتهينا من الصحراء وخلفنا وراءنا عهد البداوة والوحشة فاستقبلنا قائد الحدود بهجت بك الزعيم اركان الحرب بوجهه الطلق واسترحنا هنيهة ثم استأنفنا المسير الى القدس وكان ذلك اليوم ثاني مارس .

وقع الاختيار على مدينة القدس لتكون معسكرا للجيش اذ هي اقرب الى القناة وامر ان يتخذ مستقرنا في بنيان اوغوستا فيكتوريا الفخم الذي اطلق عليه اسم قيصرة الالمان

وكان جمال الطبيعة يزداد في عيوننا بهجة ورواء ونحن بين بئر السبع والقدس حتى اصبحنا نشاهد كل شيء احسن واجمل مما كنا نشاهده .

ثم وصلنا القدس في ليلة قمراء هادئة وقد نامت العيون في المدينة وسكنت حركة اهلها وكانت بناية اوغوستا فيكتوريا المشرفة على المدينة والمطلة على بحر لوط قائمة في تلك البقعة وانوار القمر تشرق عليها فيظهر في نهر الشريعة خيالها وكأنما

هي ايوان مزخرف بديع اعد لاحد الملوك الاقدمين • ودخلت السيارة من الباب الخارجي الى جنينة واسعة زاهية فرسمت خطاً منحنيا جميلا عَلَى رمالها التي لاتشابه رمال الصحراء ولما وقفت بنا في فناء سلم الباب الداخلي ما كنت لأصدق اننا كنا قبل ايام في صحراء التيه في الجفجافة في جوار القناة بل ظننت ما كنا فيه حلما من الاحلام وحديثا من احاديث النيام



